كتاب التوحيد

٥

الفكر الاستشراقي

تأريخه وتقويمه

الدكتور محمد الدسوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر الاستشراقي

تأريخه وتقويمه

كتاب التوحيد

سلسلة دورية تصدر عن مؤسسة التوحيد للنشر الثقافي

المراسلات

باسم رئيس التحرير على احد العنوانين :

● الجمهورية الاسلامية في ايران ● لبنان

قم ـ ص . ب ٣٦٥١ ـ ٣٧١٨٥ بيروت ـ ص.ب ١٧٩ / ٢٥ الغبيري

كتاب التوحيد

٥

الفكر الاستشراقي

تأريخه وتقويمه..

الدكتور محمد الدسوقي

السنة الثانية ـ الكتاب الخامس

الطبعة الاولىٰ ـ شعبان ١٤١٦ هـ / كانون الثاني ١٩٩٦ م

تقديم

بقلم: رئيس التحرير

الاستشراق ـ باعتباره منظومة فكرية أفرزها الغرب الحديث ـ يمثل جزءاً من وعي الغرب لنفسه وللآخرين، أو جزءاً من رؤيته لحقائق (الأنا) و(الآخر) ـ كما يقول مفكروه! ـ وهي رؤية شبه متكاملة للحياة، او (أيديولوجيا) بتعبير آخر. وبذلك فالاستشراق يشكّل منظومة بالغة التعقيد في منطلقاتها واهدافها وأساليبها وأنساقها وشموليتها. ومما يزيد هذا التعقيد ان هذه المنظومة تضم في اطارها عدة اتجاهات، متباعدة احياناً ومتقاربة اخرىٰ، في اهدافها وأساليب عملها. الأمر الذي يجعل الأحكام الكلية والفضفاضة والسريعة التي يمكن ان نصدرها على الاستشراق، تجانب الدقة والموضوعية.

فاتجاهات الاستشراق من جيث منطلقاتها ونشوؤها، لاسيما ما

يتعلق بالدوائر المتخصصة بالاسلام والمسلمين، تنقسم الىٰ ثلاثة اتجاهات رئيسة:

الاول: الاستشراق الديني الذي تزعمته الكنيسة النصرانية، وما أفرزته من حروب ونزاعات تاريخية، ابرزها الحروب الصليبية. هذا النوع من الاستشراق منطلقاته دينية، وأهدافه خليط بين النزعة الدينية والنزعة السلطوية.

الثاني: الاستشراق السلطوي الذي تبنته الدول والحكومات الغربية، وجاء امتداداً للاستشراق الديني، الّا انه انفصل عنه في عصر النهضة الاوربية وعزل الكنيسة عن الدولة، رغم محافظته علىٰ الرؤىٰ واسس المواجهة نفسها. منطلقات هذه المرحلة سلطوية واهدافها استعمارية شاملة، فكان من نتائجها فرض الغرب هيمنته السياسية والاقتصادية والثقافية المباشرة علىٰ كثير من بلدان الشرق، وخاصة الاسلامية.

الثالث: الاستشراق الاكاديمي، أو العلمي كما يحاول العاملون في هذا الحقل وصفه، حيث يؤكدون انّه استشراق موضوعي، وحر، وغير مؤدلج، واهدافه علمية محضة، واسلوبه في الدراسة منهجي اكاديمي، علىٰ العكس من النوعين السابقين. ولكن اذا فحصنا الواقع وجدنا ان كثيراً من الحالات تكشف عن خلاف ذلك. وهذا النوع من الاستشراق ظهر في مرحلة لاحقة؛ اي انه متأخر عن الاستشراق الديني والاستشراق السلطوي.

اذن.. من خلال ذلك، يمكن القول بأن الاستشراق في غالبية جهوده، يحمل منطلقات واهدافاً متحيِّزة، واحكاماً مسبقة، تكشف عن أيديولوجية الغرب وطبيعة علاقته الفوقية بـ(الآخر!). اما الجهود الاستشراقية الموضوعية والعلمية والحرة في منطلقاتها وأهدافها وأساليبها في البحث، فرغم ان لها وجوداً وحضوراً، الّا انّه وجود محدود، وحضور ضئيل التأثير في وعي الغرب للشرق. وغالبية أصحاب هذه الجهود انتهىٰ بهم المطاف اما الىٰ التعاطف مع الاسلام والمسلمين، أو الانتماء الفعلي للاسلام.

من هنا يقع علىٰ عاتق اصحاب الرأي من المسلمين (علماء ومفكرين وباحثين وسياسيين ومثقفين) ان ينطلقوا في تقييم الاستشراق من دراسة موضوعية منهجية، عميقة في معالجاتها، وشاملة في استقرائها للموقف الاستشراقي بكل انواعه وجوانبه ومجالات حركته؛ لكي تكون النتائج التي يعتمد عليها التقييم، ومن ثم التعامل مع الاستشراق، اكثر التصاقاً بالحقيقة وأقرب الىٰ الواقع.

وتمثل الدراسة التي نضعها بين أيدي المتخصصين والمهتمين، بل جميع اصحاب الرأي، محاولة جادة علىٰ هذا الصعيد. فالمقدمات الموضوعية التي وضعها المؤلف، والمنهجية العلمية، والمناقشة الهادئة للموضوع، اتاحت له الخروج بنتائج علمية، تمثل جزءاً من وعينا العلمي للغرب.

يقوم منهج الدراسة علىٰ مدخل وثلاثة فصول وخاتمة. في المدخل تحدّث الكاتب عن عالمية الاسلام، واختلافه عن كل الأديان التي خلت قبل بعثة محمد (ص)، وان ايمان المسلمين بهذه العالمية، والجهاد في سبيل ذلك، هو الذي حملهم علىٰ ان ينساحوا في الأرض لتبليغ الرسالة الخاتمة الىٰ كل انسان.

والفصل الاول عقده الكاتب لدراسة تاريخ الفكر الاستشراقي، وقد قسمه الىٰ اربع مراحل، تتبّع فيها نشأة هذا الفكر وتطوره حتىٰ الآن.

اما الفصل الثاني فقد عرض المؤلّف بعض آراء الاستشراق في عدد من القضايا، وخاصة قضايا الالوهية والعقيدة وشخصية الرسول (ص) والقرآن والسنة والفقه.

وفي الفصل الثالث قوّم المؤلف الفكر الاستشراقي، وبيّن ما له و ما عليه. وخلال ذلك درس الكاتب طبيعة العلاقة بين الاستشراق والتبشير، وموقف الباحثين المسلمين من الفكر الاستشراقي، والعوامل التي ادّت الىٰ اختلاف آرائهم منه، وخلص من هذا الىٰ الرأي الذي يتبناه في تقويم ذلك الفكر، مع الاشارة الىٰ الاسس التي قام عليها هذا الرأي.

ثم لخّصت الخاتمة النتائج العامة للدراسة، ونبّهت الىٰ ما يجب علىٰ المسلمين تجاه ذلك العدوان الفكري، الذي يعد أفدح خطراً من العدوان العسكري، كما نبّهت الىٰ ان الفكر الاستشراقي كان وراء كل المواقف المعادية

للاسلام والمسلمين قديماً وحديثاً، فهو الذي غرسها ونماها حتىٰ آتت اكلها فيما بعد.. وحتىٰ الآن.

وبصدور هذا الكتاب ـ الخامس من سلسلة كتاب التوحيد الدوري ـ يكون مشروع «كتاب التوحيد» قد أغلق ملف سنته الثانية، وهي السنة التي صدرت فيها اربعة من كتب السلسلة بانتظام، بمعدل كتاب كل ثلاثة أشهر. وهو ما نطمح ان يستمر في السنة الثالثة، وصولاً الىٰ الاصدار الشهري، ان شاء الله تعالى..

مـــدخـــل

ضرورة دراسة الفكر الاستشراقي

الإسلام دعوة عالمية، ورسالة للبشرية كافة، بعث بها محمد بن عبد الله (ص)؛ ليخرج الناس من الظلمات الى النور، ويهديهم الى صراط مستقيم؛ فقد كانت البشرية قبيل مبعث محمد (ص) تعيش في دياجير الوثنية، وتخضع في سلوكها لمنطق القوة الظالمة، والنعرة العنصرية الباغية، وكانت الرسالات الإلهية التي سبقت رسالة الإسلام قد أصابها التحريف والتبديل، وهجر الناس تعاليمها، وأمسى المجتمع البشري أشبه ما يكون بمجتمع الغابة.. لا يعرف شرعة الحق، ولا يؤمن بنصرة الضعيف ولا يسعى إلا وراء الأهواء والشهوات.

لقد كانت البشرية في حاجة ملحة للهداية، كانت في حاجة لمن يأخذ بيدها وينتشلها من الوهدة التي تردت فيها؛ ليرسم لها سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وكانت بعثة محمد (ص) هي الرحمة التي أسبغها الله على عباده، وهي النور الذي بدّد غياهب الجهالة والضلالة، وأوضح معالم

الحق والخير والفضيلة، فأخذت البشرية بعد هذه البعثة ـ ممثلة في الذين آمنوا ـ تشق طريقها نحو العزة والكرامة والعلم والحضارة؛ فقد عرفت مهمتها وغاية خلقها، وما أقدسها من مهمة! إنّها إفراد الله بالطاعة والعبادة.

وعالمية الإسلام حقيقة تطالع كل من يتلو كتاب الله؛ فهو في كثير من آياته يخاطب الناس ويدعوهم إلى الإيمان وينهاهم عن الشرك والعصيان، وفي بعض الآيات يتحدث في صراحة ووضوح عن هذه العالمية كقول الله تعالى: «وما أرسالناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[1]. فهذه الآية نصت في عبارة جازمة على أنّ بعثة محمد (ص) للناس كافة، بيد أنّها في نهايتها تشير إلى أنّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك، ومن جهل شيئاً عاداه، ومن ثم سيعادي هذه العالمية ويقف في وجهها كثير من الناس.

وتتحدث أيضاً بعض الأحاديث النبوية عن عموم الرسالة الإسلامية، منها ما روي عن رسول الله (ص) أنّه قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون: هلا وضعت اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2].

وفضلاً عن تلك الآيات والأحاديث التي بيّنت أنّ الإسلام دعوة الله العامة للبشرية كلها على تفاوت أجناسها ولغاتها وأوطانها، فإنّ هناك

أمرين يؤكدان ـ بما لا يدع مجالاً للريب ـ عالمية الإسلام، وهذان الأمران هما:

١ـ تعاليم الإسلام؛

٢ـ معجزة القرآن.

أما تعاليم الإسلام أو تشريعاته فإنّها جاءت تخاطب الفطرة الإنسانية، وتنظر إلى الإنسان نظرة واقعية، وتقوم على القصد والاعتدال؛ فلا افراط ولا تفريط، وتحترم العقل الإنساني وتؤكد المساواة بين الجميع، وتكفل للناس السعادة في الدارين.

وما دامت تلك التعاليم تخاطب في الإنسان فطرة الله التي فطره عليها، وهذه الفطرة لا تختلف باختلاف الزمان والمكان؛ لأنّه لا تبديل لخلق الله، فإنّ هذه التعاليم لم تكن ذات صبغة محلية ولا متأثرة بأية بيئة اقليمية، بل انّها إنسانية عامة؛ ولذا كانت صالحة للتطبيق الدائم، وكانت المنهاج الواضح الذي يهدي للتي هي أقوم، وعلى الناس جميعاً أن يستمسكوا به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا مجال لتفصيل القول في هذه التعاليم، وإنّما هي إشارة مجملة إلى أخص سماتها.

وأمّا معجزة القرآن فانّها تختلف عن سائر معجزات الأنبياء والمرسلين؛ فهي معجزة عقلية، وليست مرتبطة بحياة الرسول أو شخصه،

مثل المعجزات التي سبقتها؛ فقد كانت حسية وشخصية، كمعجزات إبراهيم وموسى وعيسى (ع)؛ فالنار أصبحت برداً وسلاماً على إبراهيم، وموسى يخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين، وعيسى يُحيي الموتى بإذن الله، فهذه معجزات حسية تشاهد، كما أنّها مرتبطة بشخص الرسول تنتهي بانتهاء حياته. وهذا يعني أنّ حجيتها لا تعدو الذين شاهدوها، أمّا الذين جاءوا بعد حدوثها فليست حجة عليهم، وليس هناك من دليل يلزمهم باتباع الرسول الذي جرت على يديه هذه المعجزات الحسية، اللّهم إلا تقليد الآباء والاقتداء بآثارهم في الاعتقاد.

ولكن معجزة القرآن غير تلك المعجزات؛ إنّها معجزة عقلية وغير شخصية، فهي تخاطب العقل والوجدان، وباقية إلى يوم الدين، ومحفوظة من التغيير والتبديل، وهي من ثم معجزة الدهر، وصوت السماء إلى كل إنسان على ظهر هذه الأرض إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

إنّ الناس بعد محمد (ص) يرون معجزته رأي العيان كمن شاهدوه وخاطبوه، وإذا كانت الأجيال كلها ترى هذه المعجزة وتفهمها، فهي حجة الله القائمة عليها؛ فإن ضلت، فإنها لا تضل عن جهالة، ولا عن نقص في الدلائل والبينات، ولا عن شك في الأمر، بل عن عمى في البصيرة، وتحكم في الهوى(٣).

ويتأسس على الإيمان بعالمية الإسلام ثلاثة أمور:

أوّلاً: إنّ الرسالات السابقة دعوات مرحلية ومحلية وقد نسخت برسالة الإسلام الذي بعث به محمد (ص)، وأنّ من لم يؤمن بدعوة محمد (ص)، وقد هيمن كتابها الخالد على كل الكتب التي أُنزلت من قبله، فهو خارج عن الإسلام، وإن ادعى أنّه مؤمن بالله وحده؛ لأنّ الإيمان المقبول الصحيح ينهض على دعامتين هما: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله.

ثانياً: إنّ الإيمان بعموم الرسالة المحمدية يقتضي وجوب الدعوة إليها ما استطاع المؤمنون بها إلى ذلك سبيلاً؛ حتى لا يكون أمام أي مكلف عذر في أنّ هذه الرسالة لم تبلغه، وفي هذه الحالة لا يكون مسؤولاً، وإنّما يُسأل من آمن بالإسلام وقصّر في تبليغه.

ثالثاً: ومادام ما بعث به محمد جاء للناس كافة فإنّ هذا يعني بالضرورة أن يكون هذا النبي آخر رسول يوحى إليه؛ فالعموم والصلاحية الدائمة للتطبيق، وبقاء المعجزة إلى يوم الدين يدل على أنّ محمداً لا نبيّ بعده، وأنّ الله ختم به النبوات: «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً»(٤). فكل من يدعي النبوة بعد محمد، فهو كاذب لا محالة، وتجب مناهضته والقضاء عليه؛ لأنّه مفسد وضال، ومن هادنه أو تركه وما يأفك به، فهو شريك له في ذلك الافتراء والادعاء، لذلك حارب أبو بكر المرتدين وكان من بينهم من ادعى النبوة،

وأنقذ الإسلام من كذبهم والدين غضّ طري، ولو لم يفعل الصدّيق مافعل، لانتهى أمر الإسلام في الجزيرة، ولما استطاع أن يخرج منها لينقذ البشرية من فساد المعتقدات وجبروت الطغاة.

وطوعاً لهذا ترفض كل الحركات التي زعم القائمون بها بأنّ محمداً ليس خاتماً للأنبياء، وأنّهم قد بعثوا بدين جديد، كتلك الحركات التي ظهرت في العصر الحديث، وكان من ورائها قوى معادية للإسلام والمسلمين وفي مقدمة تلك الحركات: البهائية والقاديانية.

كذلك ترفض تلك الأصوات التي تنادي بتلفيق دين جديد يجمع بين اليهودية والمسيحية والإسلام؛ بحجة أنّ تلك وسيلة لانقاذ البشرية من حمى التعصب، ووقف المذابح التي تحدث بين الناس كل يوم بسبب هذا التعصّب.

إنّ الإسلام دين التسامح، ودين الاخوة الإنسانية والمساواة بين الناس؛ فقد جاء لهم جميعاً، وألغى كل عوامل التفاخر والتنابذ والعنصرية والطائفية، وجعل المقياس الوحيد للتفاضل هو تقوى الله «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[٥]، ومن ثم لا يكره أحداً على الايمان به، وليس الجهاد فيه لحمل أحد على اعتناقه، والتاريخ خير شاهد على تلك السماحة والاخوة الإنسانية[٦]. ولكن هذا الدين هو الذي تعرض قديماً وحديثاً للتعصب الأرعن والحقد الأهوج الذي تمخض عن إبادة جماعية لطوائف من

المسلمين. ولإيمان المسلمين الأوائل بأنّ الإسلام دعوة عالمية، وأنّه لا اكراه في الدين، حملوا أرواحهم على أكفهم وانطلقوا في كل سبيل لتبليغ هذه الدعوة إلى الناس جميعاً، فالشرائع لا يسأل عنها إلا بعد تبليغها؛ ولذا لا حجة على كل من لم تصل إليه دعوة الإسلام، وإنّما تقع الحجة على الذين بلغهم هذا الدين، ثم قصّروا في تبليغه إلى سواهم.

فمن أجل التبليغ وتحقيق الحرية الدينية وحماية الدعاة إلى الله فرض الجهاد، وكان ماضياً إلى يوم القيامة، وما يقوله البعض من أنّ الإسلام دعوة قامت على السيف وانتشرت بالقهر والجبر، لا صحّة له، وآية ذلك انتشار الإسلام في بلاد عديدة لم تدخلها الجيوش الإسلامية وكان التجار والرحالة والمهاجرون هم حملة الإسلام إليها .. كذلك يحدثنا التاريخ أنّ الشعوب كانت تسعى راغبة في الدخول في الإسلام فراراً مما كانت تعانية من الظلم والطغيان، فهذا الدين دين الفطرة، حقق لهذه الشعوب حياة كريمة كانت تتطلّع إليها فسعت لاعتناقه والدفاع عنه. لقد أنقذها الإسلام من تسلّط الطغاة من الحكّام وخلصها من عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، ومن ثم آمنت به أُمم كثيرة في فترة زمنية وجيزة، فقد بلغ الإسلام في نهاية القرن الأوّل شرقاً إلى الصين، وغرباً عبر المسلمون مضيق جبل طارق، ودخلوا أوربا، ولولا القوى المضادة التي وقفت أمام الفتح الإسلامي، ومنها الاستشراق والتبشير، لعمّ الإسلام كل بقاع المعمورة ودخل الناس كافة في

هذا الدين.

فالمستقرئ لأحداث التاريخ عبر العصور المختلفة تتجلى له حقيقة مؤلمة، وهي أنّ أيّ دين من الأديان لم يلق من المقاومة لمده وانتشاره، أو معاداة أهله والمؤمنين به مثل ما لقي الإسلام.

إنّ هذا الدين الذي بعث به محمد (ص) إلى الناس كافة قد واجه منذ ظهوره وحتى الآن أعداء ألداء حاولوا اطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون. لقد تنوعت أساليب الكيد والمكر، وتألبت طوائف ودول على هذا الدين تريد أن تجتث جذوره وتقوض بنيانه، غير أنّه ظل ـ بفضل الله ـ كالصخرة الشماء التي لا تعبأ بالوعول الحانقة، ولا تلقي بالاً للقرون التي أصابها الوهن ولم تبلغ ما تريد:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

والفكر الاستشراقي يمثل قوة باغية من القوى المضادة للإسلام والمسلمين، وينسحب مفهوم هذا الفكر على كل فكر غربي أو شرقي غير إسلامي عرض لتراث الشرق الديني والحضاري ـ وبخاصة الشرق الإسلامي ـ بالدراسة والبحث.

ويعدّ هذا الفكر ظاهرة فريدة في تاريخ الفكر الإنساني، فلم يعهد أن توافر مثل هذا العدد الكثير من الباحثين ـ على ما بينهم من التباين في العقائد والثقافات واللغات والجنسيات ـ على دراسة دين لا يؤمنون به كما

فعل المستشرقون.

كذلك يمثل هذا الفكر ظاهرة فريدة من ظواهر القوى المضادة للدين الإسلامي،فقد تجاوزت تلك الظاهرة عشرة قرون من تاريخها، وما زالت تسعى وفق منهج علمي مدروس نحو غاية واحدة، وإن اختلفت وسائلها عبر تاريخها الطويل.

وقد ترددت في العصر الحاضر بعض الدعاوى التي تذهب إلى أنّ الفكر الاستشراقي لم يعد كما كان من قبل، وإنّه أصبح لوناً من التعاون الثقافي بين الأُمم، وإنّ على المسلمين أن يكفّوا عن مهاجمته، وأن يمدوا بينهم وبينه جسور التفاهم والتلاقي، ولكن هذه الدعاوى لا تنهض على دليل صحيح، ولا تشهد لها مواقف وأراء منصفة وعادلة.

وهذه الدراسة عن الفكر الاستشراقي تكشف ـ دون تحامل ـ عن طبيعة هذا الفكر ومنزلته في ميزان النقد العلمي؛ حتى لا تغتر الأُمّة بمثل تلك الدعاوى، وتقف بحزم أمام كل محاولات التضليل والتدليس من أجل الحفاظ على أصالتنا الإسلامية، فهي وحدها سبيل الحياة العزيزة في الدنيا، والفوز في الآخرة.

وقد راعيت في دراسة هذا الفكر الإيجاز والتركيز، وعرض الحقائق الكلية والمبادئ العامة، دون الاهتمام بالتفاصيل الفرعية أو اطناب القول في مسائل جزئية؛ حتى يتسنّى للقارئ أن يلمّ ـ في يسر ـ بجوهر القضايا وأبرز

الخصائص والقسمات للفكر الاستشراقي.

فما هو دور الاستشراق والتبشير في الحيلولة دون تبليغ الإسلام ونشره، ومحاولة تنفير الناس منه، وصرفهم عنه؟ وما هي العوامل والأسباب والأهداف التي كانت من وراء ذلك الجهد على مدى عدة قرون لمحاربة الإسلام والمسلمين؟

هذا ما ستحاول الصفحات التالية الإجابة عنه من خلال الحديث عن تاريخ الاستشراق والعلاقة بينه وبين التبشير، وما هو الرأي العلمي فيما صدر عن المستشرقين من آراء.

وبالله التوفيق.

هوامش المدخل

١- سورة سبأ، الآية ٢٨.

٢- رواه الإمام مسلم.

٣- انظر: القرآن المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة، ص ١٥.

٤- سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

٥- سورة الحجرات، الآية ١٣.

٦- انظر: سماحة الإسلام، الدكتور أحمد الحوفي، و: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، الشيخ محمد الغزالي.

الفصل الاول

تاريخ الاستشراق

إنّ الدارس لتاريخ الاستشراق يلاحظ أنّه بدأ أُولى خطواته في رعاية الكنيسة، وأنّ الجيل الأوّل من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة، وما زال بعضهم حتى الآن من رجال اللاهوت، وأنّ روح التعصب، والأفكار الكنسية، والنظرة إلى الإسلام نظرة غير موضوعية، هي التي قادت الفكر الاستشراقي عبر تاريخه الطويل حتى العصر الحاضر.

على أنّ الاستشراق مع هذا مرّ بعدة مراحل أو فترات تاريخية، ويمكن تقسيمها على النحو التالي:

المرحلة الأُولى:

وتبدأ بعد فتح الأندلس وازدهار الحياة العلمية فيها، وكذلك جزر البحر المتوسط وجنوب إيطاليا، وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحروب الصليبية.

المرحلة الثانية:

وتبدأ بعد الحروب الصليبية، وتمتد إلى منتصف القرن الثامن عشر

الميلادي تقريباً.

المرحلة الثالثة:

وقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر ـ على وجه التقريب ـ واستمرت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

المرحلة الرابعة:

وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية، ومازالت مستمرة حتى الآن.

وقد روعي في هذا التقسيم تمييز كل مرحلة بخصائص معينه، وإن كان هناك قاسم مشترك بين كل هذه المراحل، وبخاصة تلك التي بدأت بعد الحروب الصليبية.

وفي الصفحات التالية حديث موجز عن تلك المراحل، حديث يهتم بالكليات دون الجزئيات؛ أو الحقائق العامة دون التفصيلات الفرعية و السرد التاريخي الذي لا يغادر صغيرة و لا كبيرة عن الاستشراق والمستشرقين.

بدايات الفكر الاستشراقي

من المعروف تاريخياً أنّ الغرب كانت له محاولات قبل الإسلام لمعرفة الشرق والشرقيين (١)، بيد أنّ هذه المحاولات ما كانت تسعى إلى ما يسعى إليه الغرب بعد ظهور الإسلام، ودخوله أوربا في مستهل القرن الهجري

الثاني.

إنّ أوربا بعد فتح الأندلس وجزر البحر المتوسط، ولّت وجهها نحو الشرق؛ لأنّ نوراً جديداً انبثق فيه، واكتسح ظلمات الفرس والروم.. هـذا النور الذي بدّد دياجير الوثنية في الجزيرة، ووحـد بـين القـبائل العـربية المتصارعة، وأنشأ منها قوّة عادلة ضاربة مزقت أكبر القوى في ذلك العصر، ومكنت لدين الله في الأرض، فانتشر الإسلام في فترة زمنية وجيزة بـين شعوب وأقطار متباينة اللغات والعقائد والعوائد؛ مما أثار دهشة أهل أوربا، وحملهم على أن يقفوا على سر تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية، وأن يلموا بثقافة وعلوم هؤلاء المسلمين الذين أصـبحوا مـثلاً أعـلى للـتقدم والحضارة، وأصبحت حواضرهم مثابات للبحث والدرس ومراكز للثقافة والفكر.

إنّ أوربا التي كانت ـ حين حمل العرب الإسلام إليها ـ تغط في سبات الجهل والتخلف، والمعتقدات الفاسدة، والصراع الطبقي، والتـناحر حـول الزعامة والسلطة، سعت لأخذ علوم المسلمين وثقافتهم، وكـذلك لمـعرفة مناط قوتهم، وعوامل مجدهم وأسباب وصولهم إلى مراكز القيادة في العالم الذي كان معروفاً حين ذاك [٢]. وكان من مظاهر ذلك: هجرة شباب أوربا لطلب العلم في مراكز الثقافة الإسلامية وبخـاصة في الأنـدلس، وإرسـال البعثات التعليمية الرسمية إلى هذه المراكز، وإقامة صلات المودة بين بعض

الحكام كما حدث بين الرشيد و «شارلمان»، وكذلك إنشاء المدارس في أوربا على غرار ما كان في البلاد العربية، واستقدام الأساتذة والعلماء المسلمين للتدريس فيها مع الأساتذة الأوربيين الذين أتموا دراستهم في الديار الإسلامية، ثم نقل التراث العلمي الإسلامي إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوربا في ذلك الوقت. وبدأت حركة الترجمة في القرن التاسع الميلادي،وتمت بعد ذلك،ولا سيما بعد سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، فقد أنشأ رئيس أساقفتها ديواناً للترجمة كان يضم بعض العرب الذين تعلموا اللاتينية. وقام هذا الديوان بنقل التراث العربي برمته من فلسفة وأدب وفلك وطب ... إلخ إلى هذه اللغة.

وتعد صقلية من أهم مراكز الترجمة التي أثرت في أوربا تأثيراً بالغاً وبخاصة في مجال العلوم الطبية.

لقد حكم العرب هذه الجزيرة اكثر من قرنين ونصف من الزمان ٢١٢ ـ ٤٨٤ هـ ونشروا في ربوعها حضارة مزدهرة، كان لها انعكاساتها الإيجابية على نهضة أوربا، وتطور الحياة العلمية بها.

لقد كانت أوربا تتلمذ على أيدي العرب.. كانت تتعلم لغتهم، وتترجم علمهم، وتنشئ المدارس على غرار مدارسهم، وتضع لها المناهج الدراسية المنقولة عن المناهج العربية، ومن ثم لم يكن للعلماء الأوربيين في تلك الحقبة إنتاج علمي خاص؛ لاعتمادهم اعتماداً كلياً على التراث العربي،

وكل ما ظهر من مؤلفات لاتينية لا تعدو أن تكون ترجمة لمؤلفات إسلامية أو نقلاً عنها(٣).

ويصف بعض الأوربيين إقبال غير المسلمين، وبخاصة الشباب على تعلم العربية ودراسة الكتب الإسلامية، فيقول:

«إنّ النصارى كانوا يحبون قراءة القصائد والقصص العربية ودراسات الفقهاء والفلاسفة العرب، لا لدحضها، بل لامتلاك ناصية لغة عربية سليمة جميلة. فأين من يقرأ الآن التعاليق اللاتينية على الكتاب المقدس، أو يدرس الإنجيل، والرسل والحواريين ـ سوى رجال الدين ـ؟ واأسفاه!!

كان الشباب النصراني يدرس ويقرأ بحماس الكتب العربية، وكان يجمع مكتبات كثيرة بأثمان باهظة، ويحتقر الأدب النصراني، ولا يعيره اهتماماً، لقد نسي الشباب لغتهم، وفي مقابل شخص واحد يستطيع كتابة رسالة إلى صديقه باللاتينية، كان هناك ألف شخص يستطيعون التعبير في رسالة بالعربية، وينظمون في هذه اللغة قصائد أجمل مما يفعل العرب أنفسهم»(٤)، ولكن أوربا مع أخذها عن المسلمين، وعلى الرغم من شدة حاجتها إلى ما أخذت، كانت تشعر بشعور المعاداة والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم؛ وكان ذلك بسبب الانتصارات الحربية التي حققها المسلمون منذ معركة مؤتة ٨ هـ إلى معركة بلاط الشهداء ١١٤هـ.

إنّ الإسلام الذي انتشر في فترة زمنية وجيزة في بقعة فسيحة من العالم كان المشكلة البعيدة المدى بالنسبة لأوربا؛ ولهذا قاومته مقاومة عنيفة في شتى المجالات، وكان رفضها له يكاد يكون شاملاً من كل الجوانب (٥).

وكان النصر العسكري الذي أحرزه المسلمون تتراءى صورته في مخيلة الأوربيين، ولا سيما الحكام والقادة، فتزعج خواطرهم، وتبعث في نفوسهم روح التوجس والخوف من أن تفاجأهم الجيوش الإسلامية وتغزوهم في عقر دارهم، وأذكى هذا الشعورَ بالمعاداة والقلق موقف، الكنيسة من حركة الفتوحات الإسلامية، وهيمنة الفكر الإسلامي على شباب أوربا، فقد كانت بلا جدال ترى في هذه الفتوحات تقليصاً لنفوذها، وفي إقبال الأوربيين على دراسة العربية تقويضاً لسلطانها. لقد كانت تقود الحياة في مختلف مجالاتها من منظور الفكر الكنسي، وهو فكر يناهض النظر العقلي؛ لأنّ هذا النظر يكشف عن تناقض ذلك الفكر، وأنّه يسلّم بقضايا يرفضها العقل. فإقبال الأوربيين في حماس بالغ على دراسة العلوم العربية والثقافة الإسلامية بما تمثله من حرية دينية وفكرية، وبما تؤكد عليه من أنّ الناس جميعاً أمام خالقهم سواء، وأنّ أحداً ـ ولو كان نبياً مرسلاً ـ لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً، وأنّ الله فرد صمد لم يلد ولم يولد، وأنّ المسيح (ع) بشر كسائر البشر ـ يؤدي لا محالة إلى انهيار ما تتمتع به الكنيسة من نفوذ، زعمت أنّه حق، خوله الله إياها، وإلى نبذ ما تدعو إليه وتحاول فرضه من

مفاهيم ملوّثة بالخرافات والأساطير. والتقت أهداف الكنيسة مع حكام أوربا في الوقوف ضد المد الإسلامي، سواء أكان هذا المد في فتح جديد أو صورة نشر للفكر الإسلامي واللغة العربية، واتفق الجميع على القيام بعمل مشترك يحول دون بلوغ ذلك المد غايته في القضاء على السلطتين الدينية والزمنية في أوربا، وكانت الكنيسة تجمع بينهما بوجه عام.

لقد أخذت الكنيسة عن طريق رجالها في تحذير الجماهير من الهجرة إلى بلاد المسلمين ودراسة العلوم الإسلامية؛ لأنّ في ذلك خطراً على عقيدتهم النصرانية، ولكن الكنيسة على ما بذلت من جهد لم تنجح في وقف تيار الرحلة للاغتراف من مناهل الثقافة الإسلامية، وبدا لها أنّ الأمر يقتضي عملاً منظماً، يحقق ما تصبو إليه في منع الهجرة إلى العالم الإسلامي وتشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الأوربيين، وتمثل هذا العمل في أمرين:

الأوّل: قامت الكنيسة بإيفاد عددٍ من القساوسة الذين أُعدّوا إعداداً خاصاً إلى بعض العواصم الإسلامية في الأندلس والمغرب العربي لدراسة العربية وعلومها، رائدهم في هذا تتبع العورات وتلمس الشبهات؛ ليقوموا بعد عودتهم إلى بلادهم بتأليف الكتب وإلقاء المحاضرات المشحونة باختلاق المثالب وإثارة الحفائظ ضد المسلمين.

الثاني: انشاء بعض المدارس العربية في روما وغيرها؛ لإعداد أجيال

من المتخصصين في العلوم الإسلامية على نحو يؤهّلهم لنشر كل ما يسيء إلى الإسلام والمؤمنين به؛ حتى يفتر حماس الرغبة في الرحلة إليهم وتلقي العلم عنهم.

وكان أولئك القساوسة الذين أوفدوا إلى ديار الإسلام طلباً للمعرفة المغرضة، وهؤلاء الذين تعلموا في المدارس العربية الأوربية وفقاً للتخطيط الكنسي الذي كان يتغيا مقاومة العقيدة الإسلامية، كانوا هم الطلائع الأولى للاستشراق، وكانت آراؤهم في الإسلام، ونبيه، ومعجزته، والمسلمين، وحاضراتهم هي بدايات الفكر الاستشراقي، وهذه البدايات ما كان لها أن تعرف الموضوعية أو الأمانة العلمية؛ لأنّها خضعت لتوجيه أراد منها أن تكون حرباً فكرية، تحقق ما عجزت تحقيقه جميع المحاولات السابقة.

إنّ آراء الجيل الأوّل من المستشرقين اتسمت بالجهل المتعمد بالإسلام، والخلط الغريب بينه وبين غيره من الأديان، والرغبة العارمة في مقاومة ما يمكن أن يكون لهذا الدين من تأثير؛ فمحمد(ص) ـ فيما كتبه هؤلاء ـ ساحر، هدم الكنيسة في افريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية، والمسلمون يعبدون ثلاثين إلهاً، والقرآن يمزج على غير نظام بين تعاليم العهدين القديم والجديد، أو بين التوراة والإنجيل ... إلخ .. تلك الأفكار الحاقدة الفاسدة المستمدة من الأوهام، وآراء العوام، والكتاب المقدس، لا علاقة لها بمصدر علمي أو

موضوعية وأمانة.

فالفكر الاستشراقي إذن نشأ في رعاية الكنيسة، وخضع فيما صدر عنه لتوجيهاتها، ومن ثم لم يكن عملاً علمياً على نحو من الأنحاء؛ وإنّما كان لوناً من ألوان المقاومة للمد الإسلامي.

الفكر الاستشراقي بعد الحروب الصليبية

أسلفت أنّ الكنيسة في أوربا كانت من وراء كل المواقف المضادة للإسلام منذ دخل هذا الدين تلك القارة، فقد بذلت كل ما استطاعت من جهد في سبيل الحيلولة بين الأوربيين والوقوف على تعاليم الإسلام وآدابه، ولكنها على ما بذلت لم تحقق ما تسعى إليه، وظل الأوربيون يقبلون على تعلم العربية والهجرة إلى مواطن الثقافة الإسلامية، وظل للفكر الإسلامي تأثيره في عقول ومشاعر الأوربيين، فهم ما زالوا يدرسونه ويترجمون آثاره،بل تضاعف نشاطهم في هذا.

ولما بدا للكنيسة أنّ ما قامت به لم يكفل لها بلوغ الغاية في مقاومة المد الإسلامي فكرياً وحضارياً، اتجهت نحو إثارة العامة ضد المسلمين، وشد أزارها في هذا بعض النبلاء والحكام الطامعين في كنوز الشرق وخيراته، وأتاح التمزق الذي شهده العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري وظهور بعض الدول المستقلة عن الخلافة في بغداد، أتاح للكنيسة فرصة تحويل تلك الإثارة إلى حملات مسلحة تعبر البحر المتوسط؛ لمهاجمة المسلمين في

الشرق، تحت ستار حماية الصليب وانقاذ القبر المقدس من أيدي البرابرة المتوحشين؛ أي المسلمين ـ كما كانت تعبر عنهم الكنيسة ـ.

وتعددت الحملات التي عرفت باسم الحملات الصليبية؛ لأنّ الصلبان وزعت على الحاضرين في مجمع كلرمونت سنة ١٠٩٥م، حيث ألق البابا «أوريان الثاني» موعظته التي حث فيها العالم المسيحي على الحرب؛ لتخليص القبر المقدس من المسلمين، ووعدهم بأن تكون رحلتهم إلى الشرق بمثابة غفران كامل لذنوبهم، كما وعدهم بهدنة عامة، تحمي بيوتهم في أثناء غيبتهم. وكانت هذه الموعظة الشرارة التي أشعلت نار الحملات الصليبية التي استطاعت أن تحتل منطقة الشام، وتدخل القدس، وترتكب من الجرائم البشعة ما لا يصدقه عقل؛ إذ قتل نحو سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى ما بين رجل وامرأة وطفل، حتى خاضت الخيول في دماء الشهداء.

ومكث الصليبيون في أرض الإسلام نحو مئتي عام، وتمكن صلاح الدين ـ بعد أن وحد بين بعض البلاد العربية ـ من أن يهزم هؤلاء البغاة في موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ، وكانت هذه الهزيمة بداية نهايتهم وطردهم من ديار الإسلام. وعلى الرغم من أنّ الصليبيين عرفوا المسلمين عن كثب، ونقلوا كثيراً من مؤلفاتهم العلمية، وانتفعوا بها في بلادهم، على الرغم من كل هذا، لم تتغير صورة الإسلام والمسلمين لدى أوربا، وظلت مشاعر التعصب

متأججة في نفوس أهلها، وزادت الهزيمة في حطين من مواقف العداء، وأيقن الأوربيون أنّ الإسلام هو مصدر الخطر على مطامعهم في الشرق. ومع هذا تُعدّ نهاية الحملات الصليبية بداية مرحلة جديدة للفكر الاستشراقي، امتدت إلى نحو منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وقد تميزت هذه المرحلة بما يلي:

أوّلاً: ادراك الغرب للتفوق الشرقي:

أدرك الغرب من خلال حروبه الصليبية أنّ الشرق يتفوق عليه فكرياً وحضارياً واقتصادياً، وإنّه يجب على الغربيين أن يسيروا في نفس الطريق الذي سارت فيه شعوب الشرق؛ لكي ينهضوا ويتقدموا.

ثانياً: تضاعف الاهتمام باللغة العربية والحضارة الإسلامية:

لقد تضاعف الاهتمام باللغة العربية فتمّ إنشاء الكراسي العلمية الخاصة بها، كما تضاعف الاهتمام بإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات لدراسة الحضارة الإسلامية، وكانت المؤلفات العربية في مجال العلوم الهندسية والفلكية والطبية والفلسفية تدرس في هذه الجامعات التي أُنشِئَت تقليداً مطلقاً للجامعات الإسلامية في الأندلس وصقلية، وظلت تلك المؤلفات مادة البحث والدراسة الجامعية نحو ستة قرون [٦].

ثالثاً: نقل التراث العربي إلى أوربا:

قويت حركة نقل التراث العربي إلى أوربا، وتسابق أهلها في الحصول

على أكبر قدر منه، واشترك في هذا الحكام، والمستشرقون، وبعض الرحالة والمغامرين الذين كانوا يلجأون إلى السرقة، والخداع والتضليل.

وما كان كل هؤلاء في ما يسعون إليه ينتقون من هذا التراث؛ وإنّما كانوا يجمعون منه ما تصل إليه أيديهم، ثم يقومون بتصنيفه بعد نقله إلى بلادهم. ولعل تفرق أجزاء الكتاب الواحد في أكثر من مكتبة في العالم، أو فقد بعض هذه الأجزاء يرجع إلى ذلك.

لقد ذكر «فيليب دي طرازي» (ت ١٩٥٦ م) في الجزء الثاني من موسوعته «خزائن الكتب العربية في الخافقين»: «إنّ في بعض مكتبات لبنان مخطوطة من كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان، على هامشها حاشية بقلم قنصل فرنسا في بيروت في منتصف القرن السابع عشر، خلاصتها أنّه في سنة ١٦٧١ م أرسل عالي الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام؛ لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنسية؛ ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية».

وانّ المستشرق الانجليزي «إدوارد يوكوك» (ت ١٦٩١ م) الذي عاش خمس سنوات في مدينة حلب السورية مبشراً، قام برحلة إلى الآستانة ١٦٣٧ م، وجمع مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية، وهي التي تكوّن الآن قسماً من أثمن المخطوطات في المكتبة البودلية في «اكسفورد»[٧].

كذلك قام المستشرق الهولندي «يعقوب جوليوس» (ت ١٦٦٧م)

برحلتين إلى المغرب الأقصى وسوريا، اشترى فيهما كثيراً من المخطوطات العربية، ونقلها إلى مدينة «ليدن»، ونشر بعضها بين سنوات ١٦٢٣ ـ ١٦٥٦ م.

لقد نقل الأوربيون آلاف المخطوطات من العالم الإسلامي، وسلكوا في سبيل ذلك طرقاً متباينة، منها السرقة والتودد إلى بعض القائمين على المكتبات بالهدايا والتظاهر باعتناق الإسلام، وإبداء الرغبة في الاطلاع على ما خطته أقلام العلماء المسلمين.

وكانوا بعد نقل تلك المخطوطات إلى أوربا يصنفونها ويفهرسونها، وساعد الاستشراقَ في هذا بعضُ علماء الشرق الذين استقدموا لهذه المهمة، كما قاموا بترجمة كثير مما نقلوه وبخاصة ما يتصل منه بالعلوم الرياضية والطبية إلى اللاتينية، ثم إلى اللغات الأوربية، وطبع بعضه بالعربية بعد اختراع الطباعة.

والذي لا مراء فيه أنّ التراث الإسلامي الذي نقل إلى أوربا قد أسهم بدور فعال في انبثاق عصر النهضة، وإخراج أوربا من ظلمات العصور الوسطى، ولكن الأوربيين كانوا يتجاهلون فضل المسلمين عليهم، وكانوا في مؤلفاتهم التي أُخذت عن الكتب العربية أو ما ترجم منها يزعمون أنّهم لم يعتمدوا على مصادر عربية (٨).

وكشفت الدراسات العلمية المعاصرة عن انتحال الأوربيين لمؤلفات وأراء مفكري الإسلام في تلك المرحلة من مراحل الاستشراق، فقد أثبتت

مثلاً أنّ «هارفي» (ت ١٦٥٧ م) الذي ادعى أنّه أوّل من اكتشف الدورة الدموية قد ترجم ترجمة حرفية من اللاتينية التي نقل إليها ما قاله ابن النفيس (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) في هذا الموضوع، فهذا العالم المسلم الذي يسبق «هارفي» بنحو أربعة قرون هو أوّل من اكتشف هذه الدورة في تاريخ الطب، وليس ذلك الدعي الذي انتحل ما ليس له.

رابعاً: المواجهة الواسعة للدين الإسلامي:

وإذا كانت الكنيسة في المرحلة الأُولى للاستشراق قد جندت بعض الرهبان لدراسة الإسلام، بقصد تنفير الأوربيين منه، وإذا كانت أيضاً قد أنشأت بعض المدارس لتخريج من يتصدى لتأثير الإسلام النفسي على الأوربيين، فإنّها في المرحلة الثانية قررت مواجهة هذا الدين على نطاق واسع، ولا سيما بعد أن فتح الأتراك مناطق البلقان، وحاصروا «فينّا». إنّها بعد أن نجحت في العمل على انحسار المد الإسلامي في شبه جزيرة اسبانيا لم تنس هزيمتها المنكرة في حطين، وأزعجها المد الجديد للإسلام في شرق أوربا، وأخذت تخطط لمقاومة الإسلام لا بين الأوربيين فحسب،بل بين المسلمين أيضاً؛ أنفسهم فأكثرت من إنشاء المدارس والمعاهد التي تدرس العربية والعقيدة الإسلامية، لإعداد مبشرين، يعملون على تنصير المسلمين أو تشكيكهم فيما يؤمنون به. ومن ثم عرفت هذه المرحلة الاستشراقية التبشير بالمسيحية بين المسلمين، وكان يرحل من أجل ذلك إلى البلاد

الإسلامية بعض المستشرقين لجمع المخطوطات من جهة، وللتبشير من جهة أُخرى، وأصبحت شخصية المستشرق تجمع بين الباحث والمبشر، ومن هؤلاء من قام في بلادنا عدة أعوام لتلك المهمة.

ويعد «بطرس الكلوني» (ت ١١٥٦ م) أوّل راهب متحمس لحرب المسلمين عن طريق السلاح والفكر، وكان في رسائله للملوك الصليبيين يدعو إلى تنصير المسلمين، فذلك أنفع للمسيحية من قتلهم؛ ولهذا كان يعتقد أنّ المهمة الأُولى للحروب الصليبية هي تنصير المسلمين، ولكنها تحولت إلى عمل سياسي وعسكري، ففقدت بذلك القيام برسالتها. وأرجع «بطرس» فشل هذه الحروب في القيام بما كان يجب عليها أن تقوم به إلى جهل المسيحيين بحقيقة الدين الإسلامي؛ ولذا أوجب على نفسه وحض سواه على دراسة الإسلام، ومحاجة المسلمين، واقناعهم بالتخلي عن الإسلام، واعتناق المسيحية. وكان ممّا قام به «بطرس» للتبشير بالمسيحية بين المسلمين تكليف مجموعة من المترجمين لترجمة بعض الكتب؛ للتعرف على الإسلام ودراسة تعاليمه، ولكن هذه الكتب التي ترجمت ألفها يهود متنصرون أو نصارى مستعربون، ومن ثم كانت أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقي، بل هي إلى الأساطير أقرب منها إلى الدراسة العلمية.

ومن هذه الكتب ونحوها اطلع الغرب على الإسلام، وترسّخ في وجدان الأوربيين أنّ هذا الدين محض افتراء، وإنّ الذين يؤمنون به

ويجاهدون في سبيله قوم مضللون، وأنّ على الكنيسة أن تتصدى لهذا الدين لا بسيف الحرب، وإنّما بسيف التبشير بالإنجيل والتنصير. ومع ما بذله أمثال «بطرس الكلوني» وغيره من الحانقين والحاقدين من جهد في سبيل التبشير بالمسيحية، لم يحقق التبشير مهمته، ولم ينجح في أن يدخل في المسيحية مسلماً واحداً، بيد أنّ هذا النشاط التبشيري ـ وإن أخفق في مهمته ـ قد ترتب عليه التوسع في دراسة الدين الإسلامي، ولغة القرآن، وترجمة الكثير من المؤلفات الإسلامية إلى اللاتينية، ثم إلى بعض اللغات الأوربية، وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية.

خامساً: ترجمة القرآن الكريم:

ترجم القرآن الكريم في هذه المرحلة إلى أكثر من لغة أوربية، وكانت أوّل ترجمة للقرآن قد أُنجزت في «دير كلوني» تحت اشراف «بطرس» الذي سبقت الإشارة إليه، فقد جند هذا الراهب المتعصب بعض من يجيدون اللغة العربية من القساوسة وغيرهم لترجمة القرآن، وبعض الكتب التي أومأت إليها آنفاً؛ ليتخذ من ذلك سلاحاً للهجوم على الإسلام والاستهانة به؛ حتى يستطيع أن يبشر بالمسيحية بين المسلمين.

وكانت هذه الترجمة هي الأُولى للقرآن الكريم إلى اللغات اللاتينية، ولم تكن ترجمة بالمعنى العلمي؛ فقد سيطرت على من قام بها روح العداء والسخرية والحقد والكراهية، ومن ثم جاءت هذه الترجمة مجافية لمقصود

القرآن الكريم، ومشحونة بالأباطيل والأكاذيب. ويكفي دلالة على هذا، أنّ من قام بها وصف عمله بأنّه تعرية لمبادئ الإسلام للضوء، بعد ما سمح الدارسون في الكنيسة لهذا الفكر أن يتسع، ويتضخم، وينتشر لمدة تجاوزت خمسة قرون، وأنّه بذلك قشع الدخان الذي أطلقه محمد (ص) ، ثم يخاطب قارئه قائلاً: لعلك تطفئه بنفخاتك [٩].

ما الذي يتوقع من مترجم لكتاب، ينظر إليه هذه النظرة السوداء؟ لا مراء فيه، أنّه سيتعامل معه من منطلق التصرف في أصله، والتحريف في مضمونه، والتشويه لحقائقه، والإضافة الفاسدة إليه، **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾** [١٠].

وظلت هذه الترجمة مخطوطة نحو أربعة قرون ثم طبعت في مدينة «بازل» وظهرت في كانون الثاني / يناير سنة ١٥٤٣ م، وكانت هذه الطبعة هي البداية لسيل من الترجمات باللغات الأوربية أخذت في الظهور منذ ذلك التأريخ، حتى بلغت اللغات التي ترجم إليها القرآن الكريم ترجمة كاملة احدى وعشرين لغة أوربية، ولكن كل هذه الترجمات كانت محرفة مشوهة لا تعرف الأمانة العلمية، فقد كان كل من يترجم الكتاب العزيز من الأوربيين يشفع ترجمته بمقدمات وتذييلات وبعض الحواشي في دحض هذا الكتاب، وذلك من قبيل الإعلان عن حسن إيمانه وصحّة عقيدته؛ حتى يمكن أن تُنشر ترجمته وترضى الكنيسة عنه.

وفي القرن السادس عشر تجرأ بعض الأوربيين فنشروا طبعة للقرآن الكريم في نصها العربي، فانزعج البابا في روما كل الانزعاج من هذا وأمر بجمع النسخ المطبوعة كلها وحرقها، وأقام لذلك احتفالاً دينياً، شهده شخصياً؛ ليظهر للعالم المسيحي استنكاره البابوي.

ولم يكن انزعاج البابا من طبع القرآن الكريم في نصه العربي إلا خوفاً من اطلاع المسيحيين على ما جاء به هذا الكتاب العزيز من تعاليم وآداب، تفضح المواقف الحاقدة والأباطيل التي كان يرددها المستشرقون ـ تحت رعاية الكنيسة ـ عن الإسلام ونبيه.

سادساً: اتساع دائرة الاستشراق:

اتسعت دائرة الاستشراق، وأقبلت كل دول أوربا على الدراسات الشرقية،وأنشأت في بعض الجامعات كراسي للتخصص في هذه الدراسات، وكان هذا التسابق في دراسة الشرق وتراثه الإسلامي بوجه خاص يسعى نحو غاية واحدة، وهي التمهيد للانقضاض على الشرق مرة أُخرى، وقد بدأت بريطانيا في تحقيق هذه الغاية بإنشاء بعض الشركات التي كانت نواة الاحتلال الانجليزي للهند.

سابعاً: نقل التراث الإسلامي المخطوط إلى أوربا:

ومع كثرة نقل التراث الإسلامي المخطوط إلى أوربا، ودراسته، وترجمة بعضه، وطبع قدر منه بالعربية، ومع احتكاك العالم الأوربي

بالمسلمين في الأندلس وجزر البحر المتوسط، وفي فترة الاستيطان الصليبي بالشام، لم تتغير صورة الإسلام والمسلمين في أذهان الأوربيين؛ وذلك لأن تعامل هؤلاء مع التراث الإسلامي والمسلمين بوجه عام لم يتجه نحو البحث عن الصورة الصحيحة للإسلام، وإنّما اتجه نحو الانتفاع بما حققه المسلمون في مجال العلوم الطبيعية، وما إليها من ابتكارات، إنّهم لم يهتموا بالوقوف على مفاهيم الإسلام الصحيحة، بل إنّهم كانوا يقفون من هذه المفاهيم موقف المتعصب لما يؤمن به والذي يرى في عقائد الآخرين ـ دون فهمها أو دراستها ـ ضلالاً مبيناً؛ لأنّ جهد الكنيسة في تشويه الإسلام، بالإضافة إلى الأساطير الشعبية التي نسجت خيوطها الأوهام والأحقاد، حالت دون النظر إلى الإسلام والمسلمين بمنهج علمي موضوعي، وجعلت الأوربيين لا يرون في الإسلام إلا ديناً فاسداً، وفي المسلمين إلا أُمّة همجية كافرة، لا تحسن غير التدمير والتخريب؛ ولذلك كان كل ما كتب عن الإسلام والمسلمين يمثل السطحية، والكراهية لهذا الدين، والخوف من قوته وسطوته. ومن هنا امتلأت كل المؤلفات الأوربية في المرحلة الثانية من مراحل الاستشراق بالسخافات، والجهالات، والضلالات [١١]، والتقت كلّها على أنّ نقطة البداية في حرب الإسلام وتنفير المسيحيين والمسلمين منه على السواء هي القرآن الكريم، وكان هذا مردّ الاقبال على ترجمته ترجمة محرفة مشوهة، ينكرها الأصل العربي كل الانكار؛ لتكون ذريعة لاصدار

الآراء المضللة عنه.

ثامناً: الطعن بالإسلام وتعاليمه:

وإذا كان ذلك السلوك المعادي للإسلام موجهاً للأوربيين والمسلمين وبخاصة الذين كانوا في بعض بلدان أوربا كأهل الأندلس وصقلية، فإنّ الحقيقةالتاريخية هي أنّ الحرب الفكرية ضد الإسلام بدأت أوّلاً في الشرق، فقد أخذ المسيحيون في البلاد التي فتحها المسلمون كسوريا والعراق، يثيرون قضايا جدلية ونقدية، يريدون من ورائها الطعن في تعاليم الإسلام، وإظهار أنّها ليست جديرة بالاتباع، وقد ساعدهم على نشر ما يريدون أمران:

الأوّل: تظاهر بعضهم بالإسلام؛

الثاني: ما تمتعوا به في الحكم الإسلامي من حرية علمية.

ويرجع كل ما عرفته حلقات الدرس ومجالس العلم في الحواضر الإسلامية من مجادلات عقيمة حول كثير من القضايا الكلامية وغيرها، إلى ما قام به هؤلاء من إثارة الشبهات حول العقيدة الإسلامية، والآيات المتشابهات، ومنزلة السنّة من القرآن ... إلخ.

وكان «يوحنا الدمشقي» الذي عاش في كنف البلاط الأموي متمتعاً بالأمن والحرية، أوّل من بدأ تلك الحرب الفكرية ضد الإسلام، وكان أوّل من أثار قضايا، تبناها الفكر الاستشراقي بعد ذلك، فهو الذي ابتدع أنّ

الرسول (ص) كان يستعين براهب مسيحي آبق في نقل ديانته عن العهدين القديم والجديد، وأنّ الوحي القرآني كان يصاغ وفقاً لرغبات الرسول الجنسية؛ ويشير بهذا إلى زواج الرسول بزينب بنت جحش.

وقد تلقف مثل ـ هذه الآراء الباطلة المسيحيون من أهل الأندلس، وأضافوا إليها ما نشرته الكنيسة من افتراءات وخزعبلات، ثم ترجموها إلى اللاتينية، وكانت منطلق الهجوم الآثم ضد الإسلام.

ولم يقف علماء المسلمين أمام ما يذيعه هؤلاء الأفّاكون من أباطيل موقفاً سلبياً، وإنّما جادلوهم مجادلة علمية، وبيّنوا لهم زيف ما يقولون ويعتقدون، وكشفوا لهم عن الحقائق الناصعة التي لا يسع العاقل إلا التصديق بها والدفاع عنها. ومن هذا ما كتبه أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) في الرد على أكاذيب أحد الرهبان الفرنسيين، ومن قبل الباجي كتب الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) كتابه «الفصل في الملل والنحل» وتناول فيه الأناجيل والعقائد المسيحية بمنهج عقلي منطقي، لا مجال فيه للتجني أو الانفعال العاطفي؛ ولذلك حرمت الكنيسة التراث العلمي لهذا الإمام؛ لكي تظل الخرافات والمتناقضات حول المسيح (ع) راسخة في أذهان ومشاعر المسيحيين، فلا تزعزعها أمثال هذه الدراسات العلمية والموضوعية [١٢].

وفي نحو منتصف القرن السادس الهجري نشر راهب اسباني رسالة حمل فيها على الدين الإسلامي، ودعا المسلمين إلى الإيمان بالمسيح، وأفاض

هذا الراهب في تمجيد عيسى (ع)، وبيان منزلته. وقد تصدى للرد على تلك الرسالة التبشيرية أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت ٥٨٢ ه) في كتابه «مقامع الصلبان» وفند المزاعم التي تضمنتها هذه الرسالة، واعتمد في ذلك على الأناجيل، ولكنه في بعض الأحيان كان يستعمل ألفاظاً قاسية. ويبدو انّ روح التعصب التي كتب بها ذلك الراهب رسالته، هي التي سوّغت للخزرجي أن يردّ أحياناً بأسلوب عنيف [١٣].

وظهرت بعد الخزرجي ملفات لابن سبعين (ت ٦٦٩ ه)، والقرطبي (ت ٦٧١ ه) في نفس الموضوع وكتب فيه الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) موسوعته: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

ويُعدّ كتاب «إظهار الحق» للعلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني (ت ١٣٠٨ ه) ـ وهو هندي الأصل، وقد هاجر إلى مكة بعد أن قرر الانجليز إعدامه لشجاعته في الحق وقوة عارضته في الدفاع عن الإسلام والهجوم على الملل الباطلة ـ يعد كتابه من أهم الكتب التي ظهرت في العصر الحديث حول الصراع الفكري بين الإسلام والقوى المضادة، ويكفي دلالة على أهميته وقيمته ما كتبته صحيفة بريطانية عنه: «لو دام الناس يقرأون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم».

وما زال هذاالصراع قائماً،وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تاسعاً: التحالف اليهودي المسيحي ضد الإسلام:

عرفت المرحلة الثانية للاستشراق بداية التحالف الظالم بين اليهود والنصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، ففي عام ١٥٠٥ م كتب أحد اليهود مشروعاً لذلك التحالف، وقدمه إلى البابا، وضمنه النقاط التالية:

١ـ احتلال العالم الإسلامي؛

٢ـ انتزاع الأرض المقدسة من المسلمين؛

٣ـ احتلال اليهود لفلسطين [١٤].

ولهذا دخل اليهود ميدان الاستشراق، وقدموا إلى الدول الأوربية المسيحية كل ما عرفوه عن المسلمين من مواطن الضعف والقوة، ومن ثم كانوا عوناً لهذه الدول على احتلال البلدان الإسلامية، وتحقيق الحلم الصهيوني باغتصاب فلسطين، كما أنّهم فاقوا المستشرقين المسيحيين في إذاعة الافتراءات حول الفكر الإسلامي.

عاشراً: تعميق الهوة بين الأوربيين والإسلام:

وكان لكل ما أسلفته من خصائص هذه المرحلة في تاريخ الاستشراق أثر بالغ في تعميق الهوة بين الأوربيين والإسلام، لقد كانت مؤلفات المستشرقين، وترجماتهم للقرآن الكريم، وما روّجت له الكنيسة من أساطير وأباطيل، المرآة التي تعكس صورة هذا الدين، وهي ـ بلا جدال ـ صورة مُنَفِّرة مخيفة، فهي لا تحكي غير الهرطقة [١٥]، الوحشية، السلب

والنهب؛ ولذا اشتد الخوف من الإسلام والكراهية له، وتواطأ الجميع على مناهضته، واغتصاب أرضه، وإذلال المؤمنين به، وتوارثوا هذا جيلاً بعد جيل حتى الآن.

أخطر مراحل الفكر الاستشراقي

تُعدّ المرحلةالثالثة من مراحل الفكر الاستشراقي ـ وهي تلك المرحلة التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب، وظلت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ـ من أخطر مراحل ذلك الفكر، فالاستشراق فيها ـ بالاضافة إلى استمرارية التشويه للإسلام بين الأوربيين وغيرهم ـ استطاع أن يقوم بدوره كاملاً في خدمة السياسة الاستعمارية، وبلبلة الأفكار حول الكثير من قضايا الفكر الإسلامي، وأن يتعاون القائمون به في كل قارات العالم على الإثم والعدوان، ومن ثم اتسمت هذه المرحلة بما يلي:

أوّلاً: تبلور مصطلح الاستشراق:

واستخدم لأول مرة عام ١٧٦٩ م، في قاموس «اكسفورد» للغة الانجليزية، وأدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ م، وأصبح يطلق هذا المصطلح على كل فروع العلم التي تهتم بدراسة الشعوب الشرقية من جميع جوانبها، بما لها من ديانات ولغات وعلوم وآداب وفنون ... الخ.

ويقصد بالعالم الشرقي أجزاء العالم المصنّفة حسب التصنيف الأوربي،

التي تضم كل الشعوب التي تقع شرق قارة أوربا، والتي قسمتها النظرية الأوربية ثلاثة أقسام: الشرق الأدنى، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى(١٦).

ويلاحظ أنّ ذلك المصطلح وفق النظرية الأوربية يسوي بين ديانات وعادات العالم الشرقي ولا يكاد يفرق بين العقيدة الإسلامية والديانة البوذية، وهذا خطأ علمي نجمت عنه إساءة بالغة للإسلام وحضارته.

ثانياً: توطيد العلاقة بين الاستشراق والاستعمار:

بل أنّ الاستشراق أصبح الطريق العلمي لاحتلال البلدان الإسلامية، وأصبح المستشرقون بوجه عام موظفين في دوائر الاستخبارات في وزارتي الخارجية والمستعمرات، وكانوا مستشارين لدولهم فيما يتعلق بمواقفها السياسية والحربية من الدول الإسلامية، وقام بعضهم بأدوار التجسس تحت ستار مزيّف من الإسلام أو البحث الأكاديمي، ومنهم من دخل مكة والمدينة باسم ذلك الستار (١٧) كالمستشرق الهولندي الذي يدعى «شرود» فقد تظاهر بالإسلام، وذهب إلى مكة والمدينة في القرن التاسع عشر، وكان جاسوسا يعمل ضد تركيا.

ومنهم من كان يُعِدُّ لمهمة التجسس بطريقة، تنفي كل الشبهات حوله كهذا المستشرق الذي حدثني عنه الدكتور طه حسين فقال:

«إنّ مستشرقاً فرنسياً جاء إلى مصر ومعه زوجته، وأسلم، والتحق

بالأزهر، وادعى أنّه كفيف، وكانت زوجتي تعطف عليه، وتتألم لحاله، وقد زارني كثيراً، وتبين بعد ذلك أنّ هذا (المستشرق) ليس كفيفاً، وأنّه في سبيل القيام بوظيفة التجسس كاملة، وحتى لا ينكشف أمره، أجريت له عملية جراحية بدا بعدها وكأنّه كفيف لا يبصر، وقد رحل هذا المستشرق من مصر دون أن يحقق ما جاء هو وزوجته من أجله» (١٨).

إنّ العلاقة بين الاستشراق والاستعمار من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها (١٩)، لقد مهد الاستشراق للاستعمار، وكان عوناً له في رسم سياسته واتخاذ مواقفه حتى الآن، فالـ«مستر إيدن» رئيس الوزراء البريطاني الأسبق لم يكن ليضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط، قبل أن يجتمع بأساتذة من المستشرقين في جامعة «اكسفورد» وكلية العلوم الشرقية (٢٠). وما كان يفعله «ايدن» كان يفعله غيره من القادة السياسيين في أوربا، أمريكا وروسيا، وما يزالون يفعلون.

إنّ ما ذكرته عن هذه العلاقة بين الاستشراق والاستعمار، لا يعدو إشارة مجملة إليها، وتفصيل القول فيها يحتاج إلى دراسة مستقلة، بيد أنّي ـ مع هذا ـ أود الحديث بإيجاز عن دور الاستشراق في حملة «نابليون» على مصر، وحملة «كانيفا» على ليبيا، ففي كلا الحملتين كان للفكر الاستشراقي دور بارز في القضاء على كل مقاومة للاحتلال؛ فقد سبقتها دراسات استشراقية بينت العقبات التي ستواجه الجيوش الغازية، ومن ثم وضعت

الخطط العسكرية والسياسية وفق ما جاء في تلك الدراسات من المعلومات، وكان من بينها ما أصدره «بونابرت» و«كانفيا» من منشورات باللغة العربية، زعما فيها أنّهما يرغبان في نصرة الإسلام وحماية المسلمين من ظلم المماليك والعثمانيين!.

لقد أسرف «نابليون» فيما وجهه إلى الشعب المصري فادّعى أنّه مسلم حقيقي، وأنّه قضى على البابا الذي كان يحض النصارى على محاربة المسلمين، وقد ورد في منشور «نابليون» الذي أعده المستشرقون والذي صدر يوم ٦ تموز / يوليو ١٧٩٨ م ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له، ولا شريك له في ملكه»، هكذا يبدأ المنشور بنفي قاطع للتثليث، ولكن كيف تعامل الاستشراق مع هذا الموقف الذي اتخذه «نابليون»؟ لقد تعامل معه بالتزييف نحو قرنين من الزمان، فقد صدر في باريس ١٩٧٩ م كتاب بعنوان «مذكرات أحد أعيان القاهرة خلال الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م» وهو عبارة عن ترجمة لفصول من كتاب «عجائب الآثار» للجبرتي، ولكن المترجم يحذف الجملة التي ينفي فيها «بونابرت» التثليث، وهكذا يخون الاستشراق الأمانة العلمية في الربع الأخير من القرن العشرين، وقد زال التعصب الديني من أوربا ـ كما يقولون ـ، فما بالك بمن سبقه ممن عاشوا في عصور الظلام والتعصب ؟.. ثم يقول بونابرت في منشوره: «يا أيها المصريون، قد قيل لكم

بأنّني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنّني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وانّني أكثر من المماليك عبادة لله سبحانه وتعالى .. أحترم نبيه والقرآن العظيم، أنّ الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنّهم قد نزلوا في رومية الكبرى (روما الحالية)، وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة المسلمين، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها «الكواللرية» الذين كانوا يزعمون أنّ الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين».

ويطلب «بونابرت» بعد ذلك من المصريين ألا يحاربوا مع المماليك، وعليهم أن يلوذوا بمساكنهم، وستثبت الأحداث والأيام أنّ الفرنسيين عون لهم على التخلص مما هم فيه من جور وفساد (٢١).

وخاب ظن «نابليون»، فلم يصدق الشعب المصري بمنشوره، وثار ضد الغزاة، فما كان من هذا الذي زعم أنّه مسلم لا يشرك بربه أحداً، إلا أن أحرق القرى بأهلها، وحوّل الأزهر إلى اسطبل لخيوله، ولكن جنوده خرجوا من مصر مدحورين بعد نحو ثلاث سنوات من اعلان ذلك المنشور.

أمّا «كانيفا» فقد وزّع في الخامس من تشرين الأوّل/اكتوبر ١٩١١م ـ بعد أن استولى على القلعة الحمراء في طرابلس ـ منشوراً على الشعب الليبي، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على كافة

المرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين».

ويلاحظ أنّ «كانيفا» لم يبدأ منشوره بنفي التثليث كما فعل بونابرت، والسبب في ذلك ليس تعلقاً بالكاثوليكية؛ وإنّما هو مراعاة للفاتيكان، الذي مكّن من تحقيق التغلغل الاقتصادي الايطالي في ليبيا، بما ساهم به من استثمارات مالية من خلال فرعي بنك روما في طرابلس وبنغازي. ومثلما فعل «بونابرت»،أوضح «كانيفا»لأهل البلاد أين تكمن مصالحهم الحقيقية؟، وكشف لهم أعداءهم وكأنّهم لا يعرفونهم، ثم لجأ إلى القرآن الكريم؛ ليبرهن على أنّه مبعوث العناية الالهية وأنّ طاعته واجبة:

«فيا سكان طرابلس وبرقة، اذكروا أنّ الله قال في كتابه العزيز: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين**﴾..»، ثم بعد الاستشهاد خمس مرات بالآيات القرآنية، خلص «كانيفا» إلى القول بأنّ: «ارادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتنا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد؛ لأنّه لا يجري في ملكه إلا ما يريد، فهو مالك الملك، وهو على كل شيء قدير، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته، بملكه الذي لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه، وكان من الممترين.

وبناء عليه، يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء.

وإذا أجد من لا يحترم أو يثور على العناية الالهية التي أرسلت ايطاليا إلى هذه البلاد، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر، وقبلتها ممن يملك حق الأمر، فسيكون الانتقام منه عظيماً، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي».

وعلى الرغم من هذا التهديد والوعيد الذي ختم به «كانيفا» منشوره، هجم المجاهدون الليبيون بعد ثمانية عشر يوماً من اذاعة هذا المنشور على القوات الغازية، واشتبكوا معها في معركة رهيبة، دارت رحاها في منطقة الهاني التي تبعد عن أسوار مدينة طرابلس نحو ثلاثة كيلو مترات، وهُزِمَت القوات الايطالية شر هزيمة، غير أنّ هزيمة المستشرقين الذين أعدوا المنشور كانت أشد؛ مما جعل رد فعلهم أعنف (٢٢).

وهكذا يبدو جلياً أنّ المستشرقين من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين كانوا أهم وسائل الاحتلال.. إنّهم درسوا الشعوب الإسلامية دراسة شاملة ليقدموا للقادة العسكريين كل أسباب النصر على هذه الشعوب، وهم في سبيل ذلك لا يقيمون وزناً للموضوعية والأمانة العلمية.

ثالثاً: عقد اللقاءات والمؤتمرات الاستشراقية:

وإذا كان المستشرقون في المرحلة الثانية قد عكفوا على دراسة الشرق دون تنظيم أو تعاون وتنسيق بينهم ـ فهو نشاط فردي غالباً وإن كان للكنيسة دورها في التوجيه العام لهذا النشاط ـ، فإنّهم في المرحلة الثالثة أخذوا يعملون على جمع شملهم وتنسيق جهدهم، وتجلى هذا في المؤتمر

الاستشراقي الدولي الذي عقد لأوّل مرة في باريس ١٨٧٣م. وكان بعد ذلك يعقد كل سنة، ثم كل سنتين، ثم كل ثلاث سنوات على الأغلب أو أربع في بعض الأحيان(٢٣).

وفي هذه اللقاءات التي تضم ممثلين عن كل المستشرقين في مختلف البلدان وأيضاً بعض الأساتذة العرب، كانت تلقى الأبحاث والدراسات التي تدور حول الشرق ـ وبخاصة الإسلامي ـ وتاريخه، وتراثه العقائدي والفكري، وما كانت بوجه عام تعرض لوسائل النهوض به والحرص على تقدمه واستقلاله.

رابعاً: انشاء الجمعيات الاستشراقية:

وكان من وسائل التنظيم والتنسيق انشاء الجمعيات الاستشراقية في مختلف البلدان. وهذه الجمعيات كانت تدعو إلى عقد المؤتمرات الاستشراقية، وتضع لها جداول أعمالها.

وكان الفرنسيون أسبق من غيرهم في هذا، ففي عام ١٧٨٧ م، أنشأوا جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى عام ١٨٢٠م.

وفي «لندن»، تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام ١٨٢٣ م، وقبل الملك أن يكون ولي أمرها.

وفي عام ١٨٤٢ م، أنشأ الأمريكيون جمعية باسم الجمعية الشرقية الأمريكية.

وقامت جمعيات أخرى في دول متعددة، وكانت كل هذه الجمعيات ـ بالاضافة إلى اشرافها على المؤتمرات الاستشراقية ـ تبذل جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه، ولا سيما اللغة العربية، والعقلية العربية، والثقافة العربية، وما يتصل بذلك كلّه من دين، فلسفة، علم وأدب؛ لتقدم للحكومات في آخر كل سنة تقريراً، لا يضم بين دفتيه الحقائق التي تمليها العدالة، ويبعثها الواقع؛ وإنّما ينطوي على سموم من الحقد مع كثير من التزييف والمغالطة. على أنّ تأسيس تلك الجمعيات ـ من جهة أخرى ـ أدى إلى تجمع القوى المتفرقة للدراسات الشرقية، وازدياد نشاطها، واشتداد التنافس بينها[٢٤]؛ لتحقيق الآمال الغربية في الهيمنة على الشرق، ونهب ثرواته، واستعمار شعوبه.

خامساً: ظهورالدوريات الاستشراقية:

بدأ ظهور الدوريات التي تعبر عن الفكر الاستشراقي، وما زال بعض هذه الدوريات يصدر حتى الآن، فقد كانت كل جمعية استشراقية تصدر مجلة غالباً، بل حاول مستشرقو كل أمّة اصدار دورية خاصة بهم.

وأخطر الدوريات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة العالم الإسلامي، وطابع هذه المجلة تبشيري سافر. كما أنّ للمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة العالم الإسلامي في روحها واتجاهها العدائي التبشيري[٢٥].

سادساً: دخول دول العالم ميدان الاستشراق:

لم يكن النشاط الاستشراقي في مرحلته الثانية قد شمل كل دول أوربا بدرجة سواء، فقد كانت دول غرب أوربا أسبق من سواها في هذا النشاط، فألمانيا مثلاً لم تكن كفرنسا أو ايطاليا في الاهتمام بالدراسات الشرقية.

وفي المرحلة الثالثة دخل ميدان الاستشراق كل دول أوربا، وتسابق الجميع في هذا الميدان بشتى الأسباب، لا انتصاراً للحق؛ وإنّما حرصاً على الفوز بأكبر قدر من غنائم الشرق.

وفضلاً عن ذلك، ظهر في هذه المرحلة الاستشراق الأمريكي، وهو وإن كان امتداداً للاستشراق الانجليزي، فقد تطلع نحو السيطرة الاستعمارية ومنافسة أوربا في هذا المجال، وإن لم يتحقق ما سعى إليه إلا في القرن العشرين، ففي الاجتماع السنوي الأوّل للجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٣م، أشار رئيس الجمعية إلى أنّ النشاط الاستشراقي الأمريكي ينبغي أن يقتفي خطوات الاستشراق، وجاء في تقرير عن النشاط الاستشراقي الأمريكي أنّه عمل ضروري لحماية الأمن القومي [٢٦].

كذلك ظهر ما يمكن أن يطلق عليه الاستشراق الشرقي؛ أي ذلك الاستشراق الذي قامت به دول شرقية، لا تدين بالإسلام كروسيا، وقام الاستشراق الروسي بدور كبير في مساعدة الصهيونية للتغلغل في فلسطين وإنشاء الوطن اليهودي في قلب الوطن العربي، ففي عام ١٨٥٢م، أنشأت

القيصرية الروسية لجنة من المستشرقين والمتخصصين في المسائل العربية كان بينها عناصر يهودية، هدفها الأوّل تهيئة الوسائل اللازمة لتأسيس بيوت لايواءاليهود المهاجرين إلى فلسطين وانشاء مستشفيات لمرضاهم، تحت اشراف البعثة الروسية التي اتخذت القدس الشريف مركزاً لها، بدعوى رعاية الكنائس التابعة لها والنصارى الذين ينتمون إلى المذهب الأرثوذكسي الروسي.

وفي عام ١٨٦٤م، بعثت روسيا وفداً من أعضاء هذه الجمعية للسفر إلى فلسطين سراً؛ لتهيئة الوسائل اللازمة لإقامة ملاجئ، مصحّات، مستشفيات ودور للزوار اليهود الذين يصلون إلى القدس لزيارة المبكى في بيت القدس من جميع أنحاء العالم.

وفي عام ١٨٨٢م، أصبحت هذه اللجنة جمعية قائمة بذاتها، واحتفلت في عام ١٩٧٢م بذكرى مرور تسعين عاماً على تأسيسها، وكان الاحتفال بمركز معهد الدراسات الاستشراقية التابعة لأكاديمية العلوم بموسكو في أوّل مايس /مايو، وألقى المستشرق الروسي «س.ل. تيخفسكي» كلمة رئيس الجمعية، ثم قدم للحاضرين التقرير العام عن أعمال الجمعية، ونشاطاتها، ومنجزاتها التي قامت بها خلال تسعين عاماً، وجاء في كلمته التي ألقاها: «إنّ جمعية الاستشراق الروسي قد ساهمت مساهمة فعالة في إنجاز وتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين» (٢٧).

سابعاً: تأسيس المراكز والمعاهد الاستشراقية:

قام الاستشراق إلى جانب تنظيم نشاطه وتوسيعه عن طريق المؤتمرات، والجمعيات، واصدار الدوريات والنشرات بتأسيس المراكز، والمعاهد، والكليات الخاصة بالدراسة الشرقية، ولا تكاد تخلو عاصمة أوربية أو أمريكية أو روسية من مركز أو معهد استشراقي، بل إنّ بعض هذه المراكز والمؤسسات العلمية في ظاهرها أُنشِئت في كل العواصم العربية تقريباً، ومازال بعضها يقوم بمهمته التغريبية حتى الآن (٢٨).

ثامناً: استمرار حركة نقل التراث الإسلامي إلى أوربا:

استمرت في هذه المرحلة ولا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حركة نقل التراث الإسلامي إلى أوربا وغيرها، وقد ترجم قدر منه إلى اللغات الأجنبية، وكان جل ما ترجم خاصاً بالأدب واللغة والدراسات التاريخية. كما طبع قدر لا بأس به، وهذا الذي طبع يتناول غالباً ما يتناوله القدر الذي ترجم من قضايا الأدب واللغة والتاريخ (٢٩).

وقد نظمت المكتبات التي تضمّ ذلك التراث، ووضعت لها الفهارس، ونقل بعضها إلى اللغة العربية، كذلك أُنشِئَت المكتبات التي تحتوي على الدراسات الاستشراقية وما صدر في العالم الشرقي من مؤلفات.

تاسعاً: رحيل المستشرقين إلى العالم الإسلامي:

رحل كثير من المستشرقين إلى العالم الإسلامي، وأقام بعضهم في

ربوعه مدة وكان منهم ـ كما أشرت سابقاً ـ من يعمل جاسوساً ويزعم أنّه مسلم، ومنهم من رغب في دراسة هذا العالم عن مشاهدة ومعاينة، ومنهم من كان يقوم بالتبشير، ومنهم من تولى التدريس في المدارس والجامعات، كما أنّ منهم من دخل المجامع العلمية عضواً بها.

عاشراً: تتلمُذ الطلاب المسلمين على أيدي المستشرقين:

تتلمَذَ كثير من الطلاب المسلمين على أيدي المستشرقين سواء في داخل ديار الإسلام أم في خارجها، وقد أومأت آنفاً إلى أنّ بعضهم درّس في المدارس والجامعات في بلادنا، وهؤلاء الذين درّسوا طلابنا لم يدرّسوهم الا تشريعاتِنا وآدابَنا ولغتَنا وتاريخَنا، وهم ينظرون إلى هذا التراث كلّه نظرة غير موضوعية؛ ففقهنا الإسلامي مستمد من القانون الروماني، وآدابنا يغلب عليها طابع الهجاء والاستجداء، وتفتقر إلى التعبير الصادق عن المشاعر الإنسانية، ولغتنا كلاسيكية لا تصلح للحياة العصرية.. إنّها لغة معقدة صعبة، تضيق على استيعاب العلوم والمبتكرات، وتاريخنا ملفق مشوه يسوده افتراء، حتى في ما روي من أحاديث عن خاتم الرسل والأنبياء.

وأوفد بعض هؤلاء الطلاب إلى الخارج للحصول على مؤهلات جامعية عليا كالماجستير والدكتوراه في العلوم العربية، وكان المستشرقون ومنهم اليهود يشرفون عليهم ويوجّهونهم في أبحاثهم، وكانوا يفرضون عليهم الموضوعات، ويأبون أن يدرس الطالب كما يريد، وكانوا أيضاً لا

يسمحون لأي طالب بالخروج على الآراء الاستشراقية [٣٠]، فضلاً عن مهاجمتها ومناقشتها مناقشة، تكشف عن زيفها وبطلانها، وترتب على هذا أن تبنت طائفة من المثقفين المسلمين آراء المستشرقين وأصبحوا حماة لها، يذودون عنها ويدعون إليها، ولا سيما في مجال التدريس الجامعي؛ مما نجم عنه مايمكن أن يسمى بالاستشراق العربي، وهو ـ بلا ريب ـ أخطر من الاستشراق الغربي.

حادي عشر: تخصيص قسم الدراسات الشرقية في الجامعات الأوربية:

وكما تنافست الدول في إقامة المراكز والمعاهد الاستشراقية، تنافست كل الجامعات في أوربا وأمريكا في انشاء الأقسام الخاصة بدراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية والعلوم الشرقية، وأصبح بحلول عام ١٨٥٠م، لكل جامعة رئيسة في هاتين القارتين منهج متكامل في أحد فروع تلك العلوم الإسلامية والشرقية [٣١].

ثاني عشر: الاعتكاف على دراسة التراث الإسلامي:

عكف المستشرقون في هذه المرحلة على دراسة الإسلام والمسلمين قديماً وحديثاً ولم يَدَعوا جانباً من جوانب ثقافتنا، إلا وكتبوا فيه ونشروا عنه، وهم إلى هذا أكثروا من ترجمة القرآن الكريم وبعض مجامع السنّة، كما أنّهم عملوا الفهارس المتنوعة للمصدر الأوّل والثاني للتشريع في الإسلام وأصدروا الموسوعات الخاصة بتاريخنا وتراثنا، وحاولوا حصر ما خلفه

السلف من آثار علمية مبعثرة في شتى المكتبات في كل دول العالم تقريباً.

وقد بلغ ما كتب عن الشرق ـ وكان للإسلام الحظ الأوفر ـ نحو ستين ألف كتاب(٣٢)، فضلاً عن ذلك، البحوث والمقالات التي نشرت في الدوريات الاستشراقية، وغيرها من الصحف والمجلات.

ثالث عشر: ظهور الاستشراق الكامن:

وكل هذه الكتب والمقالات تدخل في نطاق ما يسمى بالاستشراق الظاهر، أو الذي يعلن عن نفسه بصورة مباشرة؛ وذلك لأنّ المرحلة الثالثة عرفت أيضاً الاستشراق الكامن(٣٣)، أو الذي يتوارى في ثنايا الكتب التي أُلفت في الآداب والعلوم، ففي القصة الغربية وآداب الرحلات كان يصور الشرق على نحو خيالي خرافي، يظهره بأنّه ليس جديراً بالحياة الحرة، وأنّ الغرب ينبغي أن يستحوذ عليه ويسوده.

أمّا الدراسات الفلسفية والاجتماعية والقانونية وحتى العلمية الخالصة كالطبيعة والفلك، فإنّها كانت تحرص على وضع الشرق والشرقيين في إطار التخلف، وأنّهم دون الغرب قدرةً على الابتكار والتقدم العلمي والتطور الحضاري، ومن ثم كان على أهل أوربا خاصة أن يبسطوا ارادتهم على هؤلاء المتخلفين.

وكان هذا هو الاستشراق الكامل الذي ظهر في هذه المرحلة، إنّه الاستشراق الذي تنبئ عنه فحوى الكلمات، أو تدل عليه بعض الاشارات،

إذ يأتي عرضاً وكأنه غير مقصود لذاته.

رابع عشر: تدمير الهوية الثقافية:

وكل ما أسلفته عن أهم خصائص المرحلة الثالثة من مراحل الاستشراق يشهد على أنّ هذا النشاط الاستشراقي كان من ورائه قوى متعددة، توجّه سياسته وتغدق عليه، ومن ثم كانت هذه المرحلة أخطر مراحل الاستشراق، ففيها غزا العقول، وبلبل الأفكار، وقدم دراسات تناولت كل جوانب ثقافتنا وتاريخنا، وأراد أن ندرس تراثنا من منظور الفكر الكنسي، وكأن الشعور الغربي بالفوقية وأنّ الشرقي دونه حضارة وعلماً، أوحى إلى المستشرق أنّه أخلق من الشرقي بفهم تراثه وثقافته، وتقديمه له، فكانت تلك الدراسات المختلفة، التي لم تغادر قضية من قضايا الفكر الإسلامي إلا عرضت لها، وقالت كلمة فيها.

خامس عشر: عداونية الأهداف الاستشراقية:

ولكن ماذا عن آراء الاستشراق في هذه المرحلة؟ أتغيرت عن مرحلة العصور الوسطى، فأصبحت أكثر بعداً عن السخافات والضلالات وأقرب إلى الموضوعية والأمانة العلمية، أم لم تتغير وسلكت نفس الدرب الذي سارت فيه في المرحلة الثانية، على الرغم من التطوّر الحضاري وعدم الخضوع الكامل لهيمنة الكنيسة؟

لا مجال لاستقراء الفكر الاستشراقي في مرحلته الثالثة، ويكفي

الاشـارة إلى أهـم مـنطلقاته ومـفاهيمه العـامة؛ فـالإسلام لدى جمـهور المستشرقين دين بشري، ومحمد ليس نـبياً مـرسلاً، والمسـلمون بـرابـرة متوحشون، وليس لهم دور ابداعي في التـاريخ الحـضاري. وعـودتهم إلى الاعتصام بدينهم يعني عودة الهمجية التي تعوق التقدم، وتهدد حرية العالم المسـيحي، ومـصالح المـعسكر الإمـبريالي، فـقد جـاء في تـقرير وزيـر المستعمرات البريطاني «أورسبيغو» لرئيس حكومته بتاريخ ٩ كانون الثاني / يناير ١٩٣٨م، ما يأتي: «إنّ الحرب علمتنا أنّ الوحدة الإسـلامية هـي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الامبراطورية أن تحـذره وتحـاربه، وليس الامبراطورية وحدها، بل فرنسا أيضاً، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة» (٣٤).

ويقول المستشرق «جوزيف شـاخت»: «كـانت حـركة الجـامعة الإسلامية هي الغول المرعب في ذلك العصر على نفس الطريقة، وفي نفس الزمن اللذين انتشر الرعب فيهما من «الخطر الأصفر»؛ فكانت كل ظاهرة مناهضة للامبريالية، حتى ولو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة، تُعزى إلى تـلـك الحـركة الإسـلامية، وكـانت الكـلمة نـفسها تـوحي بـالتطلع الإسلامي للسيطرة، وبأيديولوجيّة عدوانية، وبمؤامرة على نـطاق عـالمي. وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال أخـذت هـذه النـظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوربيين ولم تخل من تأثير عـلى

العلماء أنفسهم، وخصوصاً حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسة الحكومات الاستعمارية.

جمّاً، أولئك العلماء الذين اهتموا كثيراً بالدراسات المعاصرة، والذين كانت فكرة الجامعة الإسلامية تشغل اهتمامهم، فإنّها في تحليلاتهم التي كانت تتصف بدرجات متفاوتة من الدقة، كانوا يميلون لأن يروا فيها حركة رجعية» (٣٥).

وهؤلاء الذين مجدوا العرب والمسلمين، وأشادوا بما قدموا من عطاء للإنسانية، كانوا يقومون بدور المخدّر الذي يحاول الهاء المريض عن علته بالحديث عن أيام فتوته وقوته، دون أن يقدموا له الدواء الناجع لما يعاني منه، ويحول دون نهضته وتقدمه.

سادس عشر: زعزعة ثقة المسلمين بدينهم:

وكان ضعف العالم الإسلامي وخضوعه للاحتلال المسيحي من العوامل التي ساعدت على تصوير الإسلام في صورة الدين الذي لا يصلح للحياة وأنّ المسيحية بطبيعتها ملائمة للتقدم؛ لأنّ المستشرقين استغلوا ضعف المسلمين وركود ريحهم، وحكموا على دينهم من واقعهم، ورجحوا المسيحية عليه لرجحان أهلها في التطور والتقدم. ولقد صورت المسيحية على أنّها بطبيعتها ملائمة للتقدم، وقرن الإسلام بالركود الثقافي والتخلف، وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون، وبعثت حجج العصور

الوسطى بعد أن أضيفت إليها زخارف عصرية، وصورت الجماعات الدينية الإسلامية بصورة خاصة على أنّها شبكة من التنظيمات الخطرة، يغذيها حقد بربري على الحضارة (٣٦). فالاستشراق في مرحلته الثالثة ردد نفس الأفكار في مرحلته الثانية، وزاد على ذلك اتساع نشاطه، وكثرة أعماله، ودقة تخطيطه، وتغلغله في حياة الشرق وأفكاره، وتعاونه الوثيق مع الاستعمار والصهيونية، ثم استعلاؤه، وطغيانه، وبعده عن الدقة والموضوعية.

سابع عشر: انتماء بعض المستشرقين إلى الإسلام:

وإذا كان هناك عددٌ من المستشرقين يمثلون الاستثناء في الموقف المضاد للفكر الإسلامي أو المتحامل عليه والممتهن لذويه، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الشجاعة الأدبية والأمانة العلمية، ومنهم من ارتضى الإسلام ديناً، فإنّ صوت هؤلاء الذين احترموا عقولهم وصدقوا مع أنفسهم، كان أشبه ما يكون بالهمس وسط المكاء والتصدية، أو الضجيج الهائل، فلا يسمعه أحد وإذا سمعه لا يأبه به، ولا يركن إليه؛ لأنّ الضجيج الذي ساد جوّ الاستشراق غطى على مثل تلك الهمسات، وجعل عامة الناس لا تطمئن اليها، بل ترى فيها مروقاً من العقيدة الصحيحة إلى دين الشرق الملفق، ومن ثم لم تستطع أن تصدّ تيار الافتراء والتشويه، أو تحدث ثغرة في الجدار السميك الذي أقامه الفكر الاستشراقي بين الإسلام وغير

المسلمين.

وفضلاً عن ذلك،كان أصحاب هذا الصوت يلقون العنت والاضطهاد، أو اللوم والعتاب في مجتمعهم؛ لأنّهم تجاوزوا حدوداً، كان عليهم أن لا يتجاوزوها(٣٧). لقد كانوا يحارَبون في أعمالهم وأرزاقهم، ويحال بينهم وبين نشر آرائهم؛ ولذا كان بعضهم يلوذ بالصمت؛ لكي لا يموت جوعاً، ومنهم من كان يؤثر الرحيل عن بلده؛ علّه يجد في موطن آخر الحرية والحياة المطمئنة.

ثامن عشر: موقف المسلمين من النشاط الاستشراقي:

أمّا رد فعل النشاط الاستشراقي بين المثقفين المسلمين، فإنّه كان متفاوتاً، حيث أنّ كثيراً منهم، وبخاصة أولئك الذين تعلموا في المدارس الرسمية أو الأجنبية أو سافروا لطلب العلم على أيدي المستشرقين في بلادهم، هؤلاء بوجه عام رددوا ما قاله الفكر الاستشراقي، إمّا إيماناً به، أو محاولة للظهور بمظهر التجديد ومواكبة العصر في التفكير، والبحث العلمي؛ ولأنّه أتيح لهم أن يوجهوا الثقافة والتربية في أوطانهم، فقد نقلوا ذلك الفكر بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الجيل الذي قاموا على تثقيفه وتعليمه؛ مما أدى إلى غربة عامة المثقفين المسلمين عن دينهم، وأصبح انتماؤهم إليه مجرد تقليد عاطفي، لا يحميه فكر،يعي في دقة مبادئ العقيدة التي ينتمي إليها.

ومن المثقفين المسلمين الذين قدر لهم أن يتزودوا في مراحل تعليمهم

بفكر إسلامي صحيح، من نبه إلى خطر الاستشراق، ووجوب التصدي له، وتفنيد أباطيله، ومنعه مما يريد بنا، محذراً من عقدة الخواجة التي دفعت بنا إلى التقليد الجاهل،الذي لا يميز بين ما يجب أن ننقله عن غيرنا و نتأسى به فيه، وما لا يجوز أن نأخذ به؛ لأنّه لا يكفل لنا نهضة مادية، ولا نبق معه أمة معتصمة بدينها ومحافظة على أصالتها في القيم والفكر والسلوك.

لقد ظهرت بعض الدراسات التي ناقشت المستشرقين في بعض آرائهم، كما ظهرت أيضاً بعض الدراسات التي أرّخت للاستشراق وأعلامِهِ، ورصد آثاره، وهناك دراسات أخرى، دارت حول الاستشراق على هيئة محاورة أو مناظرة، فيها ينتصر أحد المحاورين للاستشراق معدداً محاسنه ويرد عليه آخر مهاجماً الاستشراق معدداً مثالبه وأخطاره(٣٨).

وكل هذه الدراسات على تنوعها تؤكد مدى تغلغل الفكر الاستشراقي في حياتنا، وأنّه في أحسن أحواله ليس فكراً منصفاً ولا مستقيماً، بل انه استعمار فكري، يمهد للاستعمار العسكري أو يعزز سلطانه.

وبعد، فتلك أهم خصائص الاستشراق في مرحلته الثالثة، ومنها يتضح كما ذكرت أنّها أخطر مراحل الاستشراق، وانّه فيها أساء إلى العالم الإسلامي أبلغ إساءة، وأنّ الجهد الطيب لبعض المستشرقين، سواء منهم من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن به، لم يكن له تأثير ذو بال في صدّ تيار التشويش والتضليل، أو في تقديم الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين.. تلك الصورة

التي تدحض ما روّجت له الأقلام الاستشراقية المناوئة، من تصوير الإسلام والمؤمنين تصويراً مُنفِّراً، تجاوز كل حدود الموضوعية والأمانة العلمية.

الفكر الاستشراقي بعد الحرب العالمية الثانية

ذهب بعض المعاصرين إلى أنّ الاستشراق بعد الحرب العالمية الثانية لم يعد كما كان من قبل.. لم يعد سلاحاً تدميرياً للقيم الإسلامية، وسلاحاً ماضياً من أسلحة الاحتلال والاستغلال؛ وإنّما أصبح عملاً علمياً خالصاً، وصورة من صور التعاون الدولي في مجال خدمة الفكر الإنساني والحضارة البشرية، أصحيحة هذه الدعوى، أم انها أثر من آثار الغزو المعنوي الذي قام به الاستشراق؟ ـ إذا ما أحسنّا الظن بأصحابها، وقلنا أنّهم لا يعملون خلف ستار مزيف من البحث العلمي لخدمة أهداف الاستشراق، وسياسة الاحتواء المذهبي، والهيمنة الفكرية، والاقتصادية التي يتبناها الاستعمار الجديد ـ.

ومن أجل بيان حقيقة هذه الدعوى ومدى صحتها أو صدقها سأعرض لبعض القضايا فيما يلي، وهي:

أوّلاً: مصادر الفكر الاستشراقي بعد الحرب العالمية الثانية.

ثانياً: نماذج من الدراسات والآراء الاستشراقية.

ثالثاً: الاشارة إلى طرف من الدراسات العربية حول ذلك الفكر.

ويقتضي الحديث عن المصادر الإيماءَ إلى أنّ ظروف نشأة الاستشراق، وتسخيره ليكون أداة لتنفير غير المسلمين من الإسلام، وزعزعة ثقة المسلمين بدينهم وصلاحيته الدائمة للحياة، جعلته لا يدرس الإسلام وثقافته لمعرفة الحقيقة في أمانة وموضوعية، ومن ثم عوّل على المصادر غير الإسلامية بالدرجة الأولى. وإذا لجأ إلى مصدر إسلامي، كان له منه موقف، يتسم بالتشكيك فيما يتعارض مع ما أوردته المؤلفات الاستشراقية، أو فيما استقر في ذهن المستشرق من آراء مسبقة، ويتلمس لدعمها الدليل من الروايات الضعيفة أو المدخولة، وبخاصة ما جاء منها في المصادر الثانوية أو غير الأصيلة؛ فهو مثلاً ينقل من كتب التاريخ ما يحتج به في الأحكام الفقهية ويتشهد بكتب الأدب في دراسة علم الحديث!!

وكان كل جيل من المستشرقين يتخذ من مؤلفات الأجيال السابقة عليه المصدر الحقيقي لدراسة الإسلام، على الرغم مما كان يجدّ في كل جيل من وسائل تتيح للاستشراق أن يقف على تعاليم هذا الدين دون فساد في الفهم أو التصور، ولكن المأساة أنّ الاستشراق كان في كل مراحله التاريخية أسير التوجيه الكنسي والأطماع الاستعمارية التي بدأت مع الحروب الصليبية، فما كان له اذن أن يخلص لمعرفة الحقيقة؛ وإنّما كان عليه أن يخلص لخدمة ما يراد منه ويكلف به.

وسار الجيل الذي ظهر من المستشرقين بعد الحرب العالمية الثانية على نفس الدرب الذي سلكته الأجيال الماضية، فهو يعتمد على دراسات هذه الأجيال في فهم الإسلام وحضارته، وهذا باعتراف هؤلاء المستشرقين أنفسهم، فالدكتور «اسطفان فيلد» يقول عن كتاب «نولدكه» الخاص بالقرآن: «ومؤلف «نولدكه» هذا بنصه المنقح المزيد مازال أداة، لابد منها لكل مستشرق، يريد الانطلاق في الدراسات الشرقية».

ويقول مستشرق آخر عن تأثير «ماسينيون» (ت ١٩٦٢م) في الفكر الاستشراقي المعاصر: «إنّ المستشرقين الذين يهتمون اليوم بالفكر العربي الإسلامي تأثروا جميعاً بـ«ماسينيون» بطريقة أو بأخرى» (٣٩).

ويعد «ماسينيون» من أخطر المستشرقين الفرنسيين الذين أساءوا إلى الإسلام والمسلمين في العصر الحديث.

ويعول مستشرق شهير معاصر مثل «جيب» في دراسته عن التاريخ الإسلامي على تسعة عشر مؤلفاً أوربياً، مهمِلاً المصادر الإسلامية الأساس (٤٠).

وليس المجال مجال حصر واستقراء واحصاء، وإنّما هي أمثلة تؤكد ما ذهبت إليه من أنّ الاستشراق المعاصر لا يعتمد على المصادر الأصيلة في دراساته، وإنّما يعوّل على ما كتبه المستشرقون.

وإذا كان الاستشراق المعاصر قد اتخذ مؤلفات المستشرقين عمدته

في الدراسة، فإنّه مع هذا لم يجمد على ما كان عليه الاستشراق في المـاضي يأخذ به من طرائق في حديثه عن الإسلام، فقد جدّت على العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الثانية عوامل مختلفة، فرضت على الاستشراق أن يغير من أساليبه، وإن لم يغير من أهدافه وغاياته.

إنّ الاستشراق البريطاني ـ على سبيل المثال ـ لجأ إلى انتهاج اسلوب جديد، وفق دراسة عرفت بتقرير «اسكاربورو»، وهذا التقرير في نحو مئتي صفحة،وقد وضع شرعة الاستشراق المعاصر في بريطانيا، وفحواه دراسة جديدة غير خاضعة للخرافات والجهل من أجل المحافظة عـلى الصـداقـة والتعاون وزيادة التفاهم بين بـريطانيا وشـعوب الشرق الأوسـط ودول آسيا(٤١).

وكان على الجامعات البريطانية أن تعدل من مـناهجها بمـا يحـقق الأهداف التي دعا إليها ذلك التقرير، وفي سنة ١٩٦٠م شكلت لجنة فرعية؛ لمراجعة التطورات التي تحققت منذ نشر تقرير «اسكار بـورو»، ولتـقديم الاقتراحات من أجل تطوير الدراسات الشرقية وسواها، وقد نشرت هذه اللجنة سنة ١٩٦١ م تقريرها الذي يؤكد أهمية توسيع نطاق البحث وزيادة نسبةالدراسات الحديثة؛من أجل فهم شعوب آسيا وافريقيا فهماً أفضل(٤٢).

وهذا (الفهم الأفضل) لا يسعى لتقديم المساعدة العـلمية والفـنية لشعوب آسيا وافريقيا؛ لكي تواصل مسيرة حريتها وتقدمها، بل هو الفهم

الأفضل الذي يتلاءم مع مصالح بريطانيا، وعلى حساب هذه الشعوب، إنّه الفهم الذي يُحسِن الاستغلال والاستعلاء في أسلوب، يتسم بالنفاق والرياء.

ويصدر في ألمانيا عام ١٩٦٢م كتاب ضخم تحت عنوان «عقائد الإسلام» من تأليف المستشرق «هرمان استيجلكر» وقد جاء في خاتمة هذا الكتاب: «إنّنا يجب أن نكسب وجهات نظر جديدة لعقائدنا المسيحية، بناء على فهمناالعميق للتعاليم الإسلامية، وفهمنا لنفسية المسلم المتدين؛ وذلك حتى نتجنب نقاط الضعف فيما نستخدمه الىٰ اليوم من أدلة ـ تلك النقاط التي تظهر لنا عند دراستنا للإسلام ـ وحتى نبني من جديد دفاعاً جديداً عن العقيدة المسيحية.. دفاعاً، يضع.. في حسابه روح الإسلام والتطور الفكري للمسلمين» (٤٣).

وهذا المستشرق الألماني يحدد هدفه من كتابه، وهو خدمة عقيدته المسيحية، والدفاع عنها، والتمكين لها بين المسلمين؛ ولكي يصل إلى غايته، يسعى لمخاطبة المسلمين بأسلوب، يبدو في ظاهره علمياً، بيد أنّه ليس كذلك؛ لأنّه لا يريد من وراء دراسة الإسلام وواقع المسلمين أن ينتصر للحقيقة؛ وإنّما يريد أن يطور من أساليب التبشير عن طريق نبذ الهجوم السافر أو الطعن المباشر، فهو يحاول أن يتخلى عن الأسلوب الاستشراقي القديم في الهجوم على الإسلام والمسلمين.

إنّ الاستشراق المعاصر يعتمد على المصادر الاستشراقية ولا يثق

بغيرها من المصادر الإسلامية، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى يحاول أن يتخذ أُسلوباً جديداً في عرض آرائه، يتوخى فيه مراعاة ما جدّ على العالم الإسلامي من متغيرات فكرية وسياسية؛ حتى يكون امتداداً متطوراً للاستشراق القديم.

ومع ما يحاوله الاستشراق المعاصر من انتهاج طرائق جديدة، تختلف في الشكل عما كان ينتهجه الاستشراق القديم، الّا انّه تغلب عليه طبيعته العدوانية السافرة. فتصدر عنه أقوال وآراء تتفق شكلاً ومضموناً مع ما صدر عن هذا الاستشراق، ومن ذلك ما يلي: في كانون الثاني / يناير سنة ١٩٤٨ م نشرت بعض المجلات الأمريكية صورة، على شكل زنجي، يمتطي فرساً، وفي يده سيف، يهدد به العالم، وزعمت أنّها صورة محمد (ص) (٤٤).

فهل تختلف هذه النظرة إلى نبي الإسلام عن نظرة العصور الوسطى؟..
تلك النظرة التي كانت لا ترى في محمد (ص) إلا مغامراًسفاحاً، يريد تدمير العالم بسيفه، وأنّ أتباعه حملوا من بعده تعاليمه التي تدعو إلى العنف، وازهاق الأنفس، واحتلال البلدان، واستغلال الشعوب؛لسلب حريتها ونهب خيراتها؛ ولذا كان الإسلام حتى الآن ـ في نظر جمهور المستشرقين ـ ظاهرة جماهيرية مخيفة غير عقلانية، وأنّه يسيطر على المؤمنين به بالشبوب الانفعالي والأحقاد الجارفة، وهم ـ لذلك ـ قتلة وخداعون، ويسعون لتخريب الغرب والوجود الإسرائيلي في فلسطين، وهم إلى هذا لا يؤمنون

بالتقدم، ولا يتصفون إلا بالفسق، والغدر، والخيانة، والانحطاط (٤٥).

ويقول المستشرق الروسي «كليموفيتش» في كتابه «الإسلام» الذي طبع في موسكو سنة ١٩٦٨ م عن (القرآن): القرآن كتاب معقد في تركيبه، فهو يحتوي على عدد كبير من الأساطير والقصص المنقولة عن قدماء العرب، وكذلك عن الأديان.. اليهودية، والنصرانية، والزرادشتية. مثال ذلك ما يحتويه القرآن من قصص الكتاب المقدس عن الأنبياء، فنجد أنّ أساطير موسى، ويوسف الجميل، ويونس، وعيسى المسيح، وغيرهم تكوّن قسماً كبيراً من القرآن.

ويخلص هذا المستشرق من حديثه عن القرآن إلى أنّ مبدأ اعتبار القرآن منزّلاً وتقديسه ـ نتيجة لذلك ـ يعارض التطور العلمي ولا يتفق مع التقدم (٤٦).

أليس مثل هذا الكلام عن القرآن في الثلث الأخير من القرن العشرين مدعاة للسخرية، ودليلاً على أنّ الاستشراق في عصر العلم لا يختلف عن الاستشراق في عصر الظلمات؟ إنّه اليوم لا يعرف في دراسته للإسلام الأمانة والموضوعية، وإنّه يصدر الأحكام عن هذا الدين دون حيثيات منطقية؛ وإنّما تمليها عليه الأهواء والكراهية الدفينة للإسلام.

ويصدر عن مطبعة «كمبريدج» منذ نحو عشر سنوات كتاب يحمل عنوان الهاجرية، نسبة إلى هاجر أُم إسماعيل (ع)، ويقصد المؤلفان ـ وهما من

المستشرقين البريطانيين المعاصرين ـ بهذا العنوان نـعت المسـلمين بهـذا الـوصف؛ لأنّ محمداً ـ في نظرهما ـ شخصـية اسـطوريـة، والقـرآن ليـس وحياً من عند الله، فهو نتاج الهاجريين التراكمي. وقد حاولا عزو كل ما في الإسلام حتى الأسماء والألقاب إلى العنصر اليهودي، بحـيث يـصبح هـذا العنصرُ السمةَ الطاغيةَ على هذا الدين بكل جوانبه، حتى الحضارية منها.

وهذا الكتاب الذي يصدر عن مطبعة جامعة عريقة، لهـا تـاريخها الشهير في البحث العلمي، يدل على أنّ المؤسسات العلمية الغربية لا ترى بأساً في نشر مثل هذا الهراء والافتراء، والذي يقضي على مؤلفي الكـتاب بأنّهما لا يعرفان شيئاً ذا بال عن الإسلام، وأنّهما يكرران الأوهام والأباطيل التي سادت الفكر الاستشراقي في عصر النهضة الأوربية، وأنّهما مـن ثم لا يصلحان لتدريس الإسلام وحضارته في الكليات الجامعية، وأنّ قـيامهما بهذا التدريس يعني استمرار التشويه، والتضليل، وحجب الصورة النـقية للإسلام عن الأجيال الناشئة؛ حتى لا تعرف هذا الدين معرفة صـحيحة، وحتى تسير على درب الاستشراق، درب المجافاة للحق والعدل والانصاف.

وفي٢٧ حزيران /يونيو سنة ١٩٤٥م،أذاعت محطةالإذاعةالبريطانية (بالتلفزيون) هذه الترنيمة التي رددتها كنيسة الأرواح في قداس أقيم بها:

LET THE SONG GO RAUND THE EARTH

دع الأغنية تدور حول الأرض

OVER LANDS WHERE ISLAM´S SWOY

فوق بلاد فيها سيطرة الإسلام

DASKLY BROODS A'ER HOME AND HEARTH

ترقد بظلماتها فوق كل موطن وبيت

CAST THEIR BONDS AWAY

اضربوا بعهودهم عرض الحائط..

إنّ هذه الترنيمة تمثل الحقد والتعصب في أقبح صوره، وهي تعبر عن جوهر الفكر الاستشراقي المعاصر، ولا شك في أنّ قسيساً مستشرقاً ـ وما أكثر القساوسة الذين يعملون في حقل الاستشراق ـ هو الذي صاغ تلك الكلمات التي تردد صداها في معبد، ينبغي أن يذكر فيه اسم الله وحده.

وفي الملتقى الإسلامي الذي عقد بالجزائر في المدة من ٢٩ آب / أغسطس إلى ٩ أيلول / سبتمبر سنة ١٩٧٩م،كان لبعض المستشرقين الذين شاركوا في هذا الملتقى مواقف وآراء،لا تختلف عن مواقف وآراء أسلافهم، الذين أثاروا الشبهات والافتراءات وأثبتوا ـ بما صدر عنهم من آراء ـ أنّ الاستشراق في الربع الأخير من القرن الميلادي الحالي يردد نفس الأفكار التي صدرت عنه منذ عشرة قرون.

وقد تصدى لهؤلاء المستشرقين بعض علماء المسلمين وفنّدوا آراءهم، وعجز المستشرقون عن الرد على هؤلاء العلماء، وفرّوا كالطير

الخائف المرتجف أمام كلمة الحق، وأحسوا ـ وربّما لأوّل مرة ـ بتلك المعارضة القوية التي أبداها كتّاب الإسلام وعلماؤه بذلك الأسلوب العلمي الصحيح الذي قدموا به ردودهم، وكشفوا به زيف دعاوي الاستشراق المعاصر.

من تلك النماذج التي أوردتها، يتأكد أنّ الفكر الاستشراقي بعد الحرب العالمية الثانية لم يتغير عمّا قبلها في الغاية، وإن حاول أن يغير من الوسيلة، وأنّ دعوى أنّ الاستشراق المعاصر قد تخلص من سلطان الكنيسة وأصبح عملاً علمياً جديراً بالحياة، لا يحميها دليل مقبول، وأنّ علينا ألا تأخذنا في الحق لومة لائم، وأن نكشف عن زيف هذا الفكر دائماً ونحذر من خطره وضرره، وألا تخدعنا كلمات الثناء على الماضي أحياناً، وعبارات المودة والرغبة في التقارب ونسيان ما كان؛ لأنّ هذا لا يدل على تغير جذري في موقف الاستشراق، بقدر ما يدل على تغير في التخطيط ومحاولة توظيف الفكر الإسلامي على أيدي المسلمين لمقاومة زحف الفكر الشيوعي الذي يهدد الغرب ويعمل على تقويض مؤسساته الاقتصادية والسياسية، وإن ادعى أنّ الغاية هي التعاون من أجل حماية الإيمان من تيار الالحاد الجارف.

وقد ظهرت عن الفكر الاستشراقي مؤلفات متعددة، من أحدثها ما كتبه الدكتور ميشال جحا، وصدر عن معهد الانماء العربي تحت عنوان «الدراسات العربية والإسلامية في أوربا» وقد ذهب إلى أنّه موضوعي في

بحثه، ولكن القارئ يأخذ عليه ما يلي:

أوّلاً: يحكم الدكتور ميشال على الوجود الإسلامي في الأندلس وصقلية وجزر البحر المتوسط بأنّه احتلال وليس فتحاً، وهو بهذا يلتقي مع الفكر الاستشراقي في النظر إلى انتشار الإسلام، وأنّ العرب الذين خرجوا من الجزيرة لتبليغ هذا الدين كانوا مستعمرين ومحتلين لا فاتحين؛ وهذا يعني أنّ الوجود الإسلامي اليوم خارج الجزيرة وجود دخيل أو أنّه احتلال، وعليه أن يتقلص إلى الخيمة والقبيلة ـ على حد تعبير بعض المستشرقين ـ.

ثانياً: يحكم بالعلمية على اعمال المستشرقين، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ويرى أنّهم يأخذون بطرق البحث العلمي المنظم، وأنّ أهل الأهواء منهم قلة نادرة وباتوا معروفين؛ وهو بهذا يتجاهل كل الدراسات التي تصف الإسلام بالآلية والجمود، والمسلمين بالانفعالية والانحلال والتخلف. وهي الدراسات التي تمثل الاتجاه العام لأعمال المستشرقين المعاصرين، فليس أهل الأهواء قلة نادرة؛ وإنّما هم كثرة كاثرة وأهل الانصاف هم القلة النادرة.

ثالثاً: يذهب إلى أنّ دائرة المعارف الإسلامية التي أخرجها المستشرقون، مرجع مهم للوقوف على تاريخ الإسلام وحضارته؛ لأنّها كتبت بطريقة علمية وافية، وأن كل مقال فيها يأتي وكأنّه القول الفصل أو نهاية النهاية في معالجة الموضوع وجمع المعلومات.

وهذا الرأي في الدائرة لا يُقِرُّ المؤلفَ عليه إلا المستشرقون ومن تتلمذوا عليهم، وآمنوا بآرائهم، وكأنّ الدكتور جحا بما يذهب إليه يحض كل مسلم على التعويل في معرفة دينه وتاريخه على هذه الدائرة، فقد كتبت كما يزعم بطريقة علمية وافية، وجاء كل بحث فيها قولاً فصلاً في موضوعه، فكل ما عداها من ثم لا يعتد به، ولا جدوى منه!

وهذه دعوى خطيرة جداً، وترويج للفكر الاستشراقي بقلم عربي، لأنّ تلك الدائرة ليست كما يذهب الدكتور جحا، فهي لم تكتب بطريقة علمية وليست قولاً فصلاً فيما عرضت له من قضايا؛ ولهذا لا تعدّ مرجعاً أصيلاً للفكر الإسلامي. وتشهد الحواشي والتعليقات التي اشتملت عليها النسخة المترجمة للدائرة بأنّ الذين كتبوا فصولها قد خضعوا لمفاهيم خاصة فيما يكتبون، وأنّهم لم يقوموا بهذا العمل الضخم الذي أنفقوا عليه أموالاً طائلة وجهداً فائقاً، خدمة علمية لتراث دين، لا يؤمنون به؛ وإنما أعدوا هذا العمل، ليكون حجر الزاوية في تشويه الفكر الإسلامي، وبتر صلة المسلمين بالمصادر الأصيلة لتاريخهم، أو اضعاف الثقة بها. وقد حقق هذا العمل نجاحاً ملحوظاً في التشويه؛ بسبب الفراغ الفكري الإسلامي في مجال كتابة مثل هذه الموسوعة، وما كتبه عنها تلامذة المستشرقين من أمثال الدكتور جحا، وعبد المنعم ماجد، وغيرهما.

رابعاً: يعقد الدكتور ميشال في كتابه فصلاً عن نظرة المشارقة إلى

المستشرقين، يسوق فيه طائفة من الآراء، غير أنّه يجنح ـ فيما أورده ـ إلى الذين يشايعون الفكر الاستشراقي، ويلمز هؤلاء الذين حملوا على المستشرقين، ولو كانوا أوربيين أو عاشوا في أوربا زمناً طويلاً، كما فعل بالنسبة إلى «ليوبولد فايس» النمساوي الأصل الذي اعتنق الإسلام وتسمّى باسم محمد أسد، وكذلك مالك بن نبي المفكر الجزائري الذي عاش في فرنسا أكثر من ربع قرن، وكان على دراية دقيقة بالفكر الاستشراقي، وتعد الدراسة التي كتبها عن هذا الفكر ـ على ايجازها ـ من أهم الدراسات التي أبانت عن أهداف المستشرقين قديماً وحديثاً.

ولا مجال لتتبع كل أخطاء ما كتبه الدكتور جحا وتفنيدها، ولكن المؤسف أن تصدر هذه الدراسة عن هيئة علمية عربية، وأن نحارب أنفسنا بأيدينا، وننفق أموالنا فيما يرتد بالشر علينا.

والنتيجة لكل ما أسلفته هي أنّ الفكر الاستشراقي بعد الحرب العالمية الثانية لا يقوم على النظرة العلمية ولا على أُصول النقد والتحليل الموضوعية، وأنّه لم يتخل عن طعن الإسلام وتلمس مواطن للهجوم عليه منها، وإن حاول أن يتخلى عن الأسلوب القديم من حيث الشكل، بيد أنّه لم ينجح في هذا.

ويرى الدكتور محمد محمد حسين (ره) أنّ بحوث المستشرقين في أوائل القرن الميلادي الحالي كانت موجهة للغربيين وحدهم، ولا تحسب

حساباً للقارئ المسلم، ثم اتجهت بعد الحرب العالمية الثانية إلى مخاطبة المسلمين والغربيين على السواء، وأنّ تلك البحوث بعد هذه الحرب تتميز بأمرين:

١ـ خدمة السياسة الغربية بوجه عام؛

٢ـ افقاد الإسلام طابعه الثابت عن طريق ما يسمى بتطوير الإسلام وهو تطوير يراد به خدمة المصالح الاستعمارية (٤٧).

على أنّ الاستشراق بعد الحرب العالمية الثانية لم يعد مقصوراً على طائفة من الباحثين المتفرغين لدراسة الإسلام والمسلمين؛ وإنّما دخل الميدان كل أجهزة الإعلام وكذلك الشركات على اختلافها وبخاصة في أمريكا(٤٨). وقد نجم عن هذا طغيان الأفكار والآراء الفاسدة، وتعدد المصادر التي تشوه الإسلام وتسيء إلى المسلمين.

والخلاصة أنّ الفكر الاستشراقي بعد الحرب العالمية الثانية لم يتحول عن الغاية العامّة للاستشراق منذ نشأته، وأنّه يحاول الأخذ بأسلوب التمويه والتضليل، والبعد عن المواجهة الصريحة، وأنّ ذلك الفكر ساهم في نشره ـ فضلاً عن المستشرقين ـ كل أجهزة الإعلام والجمعيات والشركات، ولكن كل هذه الأجهزة على تنوعها يوجهها الاستشراق ويمدها بالدراسات والمعلومات.

هوامش الفصل الاول

١- انظر: فلسفة الاستشراق، الدكتور أحمد سمايلوفتش، القاهرة، ط. دار المعارف، ص ٣٩.

٢- انظر: التشريع الإسلامي وأثره في التشريع الغربي، الدكتور محمد يوسف موسى، ط. القاهرة، ص ١٠٧.

٣- انظر: تأريخ العلوم عند العرب، الدكتور فؤاد سزكين، ط. الرياض، ص ٣٢.

٤- نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ترجمة الدكتور علي خشيم و الدكتور صلاح الدين السوري، ط. ليبيا، ص ٢٨.

٥- المصدر السابق، ص ٥.

٦- انظر: محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب، الدكتور فؤاد سزكين، ص ٧٧.

٧- وانظر: الدراسات العربية الإسلامية في أوربا، الدكتور ميشال جحا، ص ٣٢.

٨- وانظر: محاضرات في تأريخ العلوم عند العرب، ص ٨١ و ٨٤.

٩- وانظر: مجلة المسلم المعاصر، العدد ٤٨ ، ص ٦٢.

١٠- سورة الصف، الآية ٨.

١١- انظر: صور استشراقية، الدكتور عبد الجليل شلبي، ص ٢٦.

١٢- انظر: الوعي الإسلامي، العدد ٢٠٨، ص ٦٤.

١٣- وانظر: مجلة البحث العلمي (المغربية)، السنة الخامسة، العدد ٣١، ص ٢٣.

١٤- وانظر: التبشير والاستشراق، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص ١٠٧.

١٥- أي: الكفر والإلحاد.

١٦- الاستشراق ماله وما عليه، الدكتورة رشا الصباح، جريدة الأنباء الكويتية، ١٩٨٢/٩/١٤م.

١٧- انظر: أيام مع طه حسين، للكاتب، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ٥٣.

١٨- انظر: المصدر السابق.

١٩- انظر: الاستشراق، الدكتور «ادوارد سعيد»، ترجمة الدكتور كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ص ٧٤، ١٢٠، ١٢١، ٢٠٨، ٢٢١.

٢٠- التبشير والاستشراق، محمد عزت الطهطاوي، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، ص ٤٣.

٢١- انظر: مجلة العربي، عدد آب / اغسطس ١٩٨١م، ص ٣٥ والجدير بالذكر انّ مستشرقاً فرنسياً عاصر حملة «نابليون» لم يورد هذا المنشور في كتابه «المنتقيات الأدبية العربية» الذي صدر عام ١٨٠٦م، خوفاً على نفسه من اجراء التذكير بنص، يفتخر فيه «بونابرت» بتدمير البابوية، ولما سقط «نابليون» ١٨١٥م، أسرع هذا المستشرق باعادة طبع كتابه مدرجاً المنشور الذي يدين «بونابرت»، ولكنه يدين أيضاً ممارسات المستشرقين؛ إذ أنّه من صنعهم. (وانظر: المصدر السابق).

٢٢- انظر: مجلة العربي، عدد آب/اغسطس ١٩٨١م، ص ٣٧ ـ ٣٨.

٢٣- انظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، الدكتور ميشال جحا، بيروت، معهد الانماء العربي، ص ٢٧٨.

٢٤- انظر: فلسفة الاستشراق، ص ٨٢.

٢٥- انظر: مجلة الأزهر، المجلد ٣١، ص ٥٢٣.

٢٦- انظر: الاستشراق، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

٢٧- انظر: الاستشراق الروسي، الاستاذ محمد أسد شهاب، مجلة الأمة القطرية، العدد ٢٠.

٢٨- انظر: التبشير والاستشراق، ص ١٠٧.

٢٩- انظر: الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوربية (وهو مجموعة من المحاضرات لخمسة من المستشرقين، ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والإسلامية عام ٧٢ـ ١٩٧٣م بجامعة بيروت العربية، بيروت، ص ٢٥.

٣٠- انظر: المصدر السابق، ص ٤٠.

٣١- انظر: السنّة ومكانتها من التشريع الإسلامي، الدكتور مصطفى السباعي،القاهرة، مكتبة دار العروبة، ص ٢٧.

٣٢- انظر: الاستشراق، ص ٢٠٣.

٣٣- انظر: المصدر السابق، ص ٢١٦.

٣٤- انظر: المصدر السابق، ص ٢١٣.

٣٥- انظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الدكتور محمود حمدي زقزوق، سلسلة كتاب الأمة القطرية، صفر ١٤٠٤ هـ ص ٩٨.

٣٦- انظر: تراث الإسلام، ص ٨٥.

٣٧- المصدر السابق، ص ٨٤.

٣٨- انظر: مجلة الهلال ١٩٤٢، ص ٣٢١ ـ ٣٢٧.

٣٩- انظر: الدراسات العربية الإسلامية في بعض البلاد الأوربية، ط. بيروت، ص ٤١.

٤٠- وانظر: فلسفة الاستشراق، أحمد سمايلوفتش، ص ٧٠٦.

٤١- وانظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، ص ٤٦.

٤٢- وانظر: المصدر السابق، ص ٤٧.

٤٣- انظر: الإسلام في الفكر الغربي، الاستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص ٢٣.

٤٤- مجلة الأزهر، م ١٩، العدد ٣٢٤.

٤٥- انظر: الاستشراق، «ادوارد سعيد»، ص ٣٠٨، ٣١٤، ٣١٨.

٤٦- انظر: مجلة الأمة القطرية، العدد ٢٠، ص ٣٠.

٤٧- حصوننا مهددة من الداخل، ص ٣٨٨.

٤٨- انظر: تغطية الإسلام، «ادوارد سعيد».

الفصل الثاني

من آراء المستشرقين

منطلقات الفكر الاستشراقي

أوردت في الفصل السابق طرفاً من آراء المستشرقين، جاءت متناثرة في معرض التدليل على الموجهات العامة للفكر الاستشراقي، ولم يكن الغرض منها دراسة موقف هذا الفكر من العلوم الإسلامية بمدلولها العام والخاص [1] على نحو، يوضح المنهج الاستشراقي في تناوله لهذه العلوم. ومن ثم آثرت أنّ أقدم في هذا الفصل عرضاً تحليلياً لبعض ما صدر عن المستشرقين من آراء في بعض الموضوعات والقضايا، ولعل هذا يعطي تصوراً وافياً عن ذلك المنهج والدعائم التي يقوم عليها.

والذي لاجدال فيه، انّ استقراء ما كتبه المستشرقون في الإسلام وتراثه أمر بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً، فهم لم يغادروا فرعاً من فروع العلوم الإسلامية أو جزئية من جزئياتها، إلا وأدلوا بدلوهم فيه. وتؤكد المكتبة الاستشراقية في مختلف دول العالم هذه الحقيقة، فهي تضم ـ بعدة لغات ـ مئات الألوف من المؤلفات والبحوث والمقالات التي كتبها المستشرقون.

وما دام الاستقراء لا سبيل إليه، فإنّه لا مناص من الاجتزاء ببعض الآراء، ولكنه اجتزاء عبر عن الخطوط الكبرى والمبادئ الكلية للفكر الاستشراقي.

وأمّا الموضوعات التي رأيت الحديث عنها، فهي الموضوعات التي تمثل منطلقات الفكر الاستشراقي بكل أبعاده وقضاياه، وأهمها ما يلي:

أوّلاً: الالوهية:

يقول مستشرق في تفسير قوله تعالى: ﴿**وإلى الله المصير**﴾: «إنّ إله الإسلام جبار مترفع، بينما إله المسيحية عطوف متواضع، ظهر في صورة إنسان هو الابن الإله؛ فعقيدة التثليث المسيحية قربت الإنسان من الإله، وعقيدة التوحيد الإسلامية باعدت بينهما وجعلت الإنسان خائفاً متشائماً»[٢].

ويرى القسيس «زويمر» أن المسلمين وإن كانوا موحدين الّا انّ تعريفهم لإلههم يختلف عن تعريف المسيحيين؛ لأنّ إله المسلمين ليس إله قداسة ومحبة.

ويقول المستشرق اليهودي «جولد زيهر»: «من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه في العقيدة موحداً متجانساً خالياً من المتناقضات، فالتوحيد مذهب ينطوي على النقائض العسيرة الفهم، أمّا التثليث فمذهب واضح في فهم الالوهية»[٣].

أليس هذا شيئاً عجيباً؟ هذا اليهودي الذي يدعي أنّه يؤمن بالوحدانية وينكر عقيدة التثليث، يوازن هنا بين ما يدعو إليه القرآن من الايمان بإله واحد وبين مذهب التثليث عند النصارى، ويرى أنّ هذا مذهب واضح وأنّ ما قرره القرآن ينطوي على النقائض العسيرة الفهم! إنّ هذا الكلام الذي يلقي على عواهنه يحكم على هذا المستشرق بالتضليل والنفاق؛ لأنّه لو كان صادقاً بينه وبين نفسه فيما يذهب إليه، فإنّه يكون مُؤْثِراً للمسيحية ـ بعد تحريفها ـ على اليهودية، وهو مالم يصرح به. فهو إذن يتخذ ما يقوله ذريعة لكسب ود المسيحيين وعطفهم؛ من أجل نصرة المبادئ الصهيونية التي تعكسها بروتوكولات حكماء اليهود، فهو النفاق وليس البحث العلمي النزيه.

أمّا ما يراه «زويمر» ـ وهو من أخطر المبشرين المحدثين ـ فهو جهل واضح؛لأنّ من يتمتع بقدر قليل من العقل، إذا تلا القرآن الكريم، فإنّه يجزم ـ لا محال ـ بأنّ المسلمين يؤمنون بالله الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

على أنّ المسلمين لا يؤمنون بإله خاص بهم، بل يؤمنون بالله الواحد الأحد رب السموات والأرض وما فيهن. فما صدر عن هذا القسيس بهتان لا مثيل له، ومن عجب أن يرتدي إنسان ثياب العلماء ثم يردد مثل هذا الهراء.

وهـــذا المســتشرق الذي اســتنبط مــن قــوله تــعالى: ﴿وإلى الله المصير﴾ تلك الأحكـام الفـاسدة، لا يخـتلف فـيما ذهب إليـه عـما قـاله «جولدزيهر». ومثل هذه الأحكام والآراء لا تعرف الأمانة العلمية أو الدقة الموضوعية وتهيمن عليها المفاهيم الكنسية، وروح التعصب، ونزعة التشويه والتضليل؛ فلا وزن لها علمياً، وإن كان لها ـ بلا ريب ـ صداها غير الطيب بين غير المسلمين.

ثانياً: الرسول (ص):

يزعم «مرجليوث» الذي وصفه بعضهم بأنّه يعد من المســتشرقين القلائل الذين أتقنوا العربية فهماً وكتابة إلى جانب جميع اللغات السامية(٤)، وهو صاحب نظرية الشك في صحة الشعر الجاهلي، والتي أخذ بها الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي»، يزعم أنّ محـمّداً (ص) لم يـعرف والده؛ إذ انّ عبد الله اسم يضاف إلى مجهول النسب!

يزعم هذا، وهو يعرف مدى اهتمام العرب بالأنساب ويعرف عناية قريش بأبنائها وآبائها، فكيف جهل النسابون الوعاة نسب محمد لبني هاشم، وقد عرفوا أنساب الخيول؟!.. أفيؤتمن مثل هذا (العلامة) ـ على حد قـول بعضهم ـ على قضية، يدرسها، وهو يسمح لقلمه أن يفتري عامداً بما ينكره اطلاعه؟

ويدعي بعض المستشرقين أنّ محمداً كان أسقفاً مسيحياً، فطمحت

نفسه إلى رتبة فوق رتبته، فغضب عليه البابا، فحرمه، فادعى النبوة نكاية به!

والاستشراق يحكم على الرسول (ص) ـ قبل أن يدرس حياته ومادعا إليه ـ بأنّه ليس نبياً من عند الله، ومن ثم حاول أن يؤكد ما ذهب إليه فادعى أنّ محمداً كاذب فيما جاء به، أو أنّه كان مخدوعاً في نفسه؛ حيث اعتقد أنّه رسول الله من غير أن تكون رسالته من عند الله، أو أنّه كان مريضاً مصاباً بنوع من الصرع(٥)، وأنّ الوحي كان ينزل عليه في حالة مرضه، ثم يقول للناس ـ بعد أن يذهب عنه ما ألمّ به ـ إنّ الوحي نزل بآيات بينات، ويتلوها عليهم.

ويرى بعض المعاصرين أنّ المستشرقين في موقفهم من الرسول (ص) ينقسمون أربعة أنواع:

١ـ فريق منهم يؤمن بأنّ محمداً (ص) صادق قولاً وعملاً، وأنّه أوحي إليه حقاً، وهؤلاء عدد قليل جداً، وليس لرأيهم في نبي الإسلام تأثير يذكر بين أقوامهم، بل إنّ منهم ـ إن لم يكن كلهم ـ مَن تعرض في بيئته وأمته لمضايقات وحورب في رزقه؛ بسبب شجاعته وصدقه مع نفسه.

٢ـ فريق آخر يعتقد أنّ النبي محمداً (ص) مخلص قولاً وعملاً، ولكن كان يخبر بما خيل إليه أنّه رآه أو سمعه، وهو في حالة غيبوبة.

٣ـ وفريق ثالث يعتقد أنّ محمداً (ص) جمع مأثورات يهودية، ومسيحية، وأساطير دينية قديمة، وروايات شعبية شفوية، ثم نشرها في قومه على أنّها وحي من عند الله، وعذره أمام ضميره أنّ هذا الذي جمعه يرشد

أولئك القوم الفوضويين، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويجمع متفرقهم، ويخلق فيهم الوحدة والتماسك؛ أي أنّه مؤمن بفكرة أنّ الغاية تبرر الوسيلة؛ فهو مصلح العرب ومنظمهم الأكبر وليس نبيهم الموحى إليه من عند الله.

٤ـ وفريق رابع يقف من محمد (ص) موقف المرتاب أو الجاحد المنكر في جزم متهكم (٦).

والمستشرقون إلى جانب زعمهم بأنّ محمداً دعيٌّ، وأنّه في أحسن أحواله مصلح وليس نبياً مرسلاً، حاولوا أن يؤكدوا ذلك الزعم بدراسة حياة الرسول (ص) دراسة غير منصفة ولا أمينة، وقد اهتموا بصفة خاصة بموضوع الزواج، فكلهم يحسب أنّ المقتل الذي يصاب منه الإسلام هو تشويه سمعة النبي (ص)، وتمثيله لأتباعه في صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الاصلاح. وأي صورة تعنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تعنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد، العازف في معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح (٧).

إنّ محمداً (ص) لم يلق ممن لم يؤمن به من المستشرقين ـ وهم الجمهور ـ إلا ظلماً، وإنّ التفاوت بينهم هو في مقدار ذلك الظلم. ولو كانوا ينكرون الأديان قاطبة ولا يسلمون بوجود الأنبياء والرسل، لكان ذلك مفهوماً منهم إلى حد ما، لكنّهم يسلمون باليهودية، والنصرانية، ويؤمنون بنبوة إبراهيم

وموسى وعيسى وداود وسليمان (ع). فليت شعر العلم والعقل ماذا في الإسلام أو في القرآن يجعلهم ينكرون نبوة محمد (ص) خاصة في الوقت الذي يؤمنون فيه بأنبياء كتب العهدين؟ بل وفي الوقت الذي يقر أكثرهم فيه بالوهية عيسى (ع)،لكنهم مستشرقون.. ومستشرقون على الطراز العلمي الحديث [٨].

وكان لما صدر من المستشرقين من آراء في الرسول (ص)، تتسم بالجهل، والافتراء، والوهم، والكذب أثر في نظرة عامة الغربيين إلى المسلمين، إذ اعتقدوا أنّ محمداً (ص) كاذب، ومن يقول بغير هذا فهو مُضَلَّل، وأنّ المسلمين أمة وثنية؛ لأنّهم يقدسون محمداً أو يعبدونه. وليس من العسير أن يتقبل الغربي هذه الفكرة فكما أنّ بعض المسيحيين يعبدون المسيح، فكذلك يظن بعض الغربيين أنّ المسلمين يعبدون محمداً مؤسس دينهم؛ الذي يطلق عليه لدى طائفة من المستشرقين وسواهم من غير المسلمين اسم «المحمدية» لذلك السبب.

ثالثاً: القرآن الكريم:

القرآن الكريم كما يقول عنه الإمام الشاطبي هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنّه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه [٩].

هذا القرآن ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي

اشتمل على الفرائض والآداب التي تهدي للتي هي أقوم، والذي كان نزوله فتحاً مبيناً في تاريخ البشرية وتطورها الحضاري، والذي تعهد الله بحفظه إلى يوم الدين؛ فهو معجزة خالدة باقية لا يلحقها تبديل أو تحريف كما حدث للكتب التي نزلت من قبله ـ هذا القرآن وقف منه الفكر الاستشراقي موقفاً مجافياً لأبسط أصول المنهج العلمي. وتمثل هذا الموقف في انكار أُلوهية هذا الكتاب، فليس وحياً أو معجزة؛ وإنّما هو كتاب بشري ألّفه محمد، وزعم أنّه وحي من لدن حكيم مجيد. وهذا الموقف فرع عن انكار نبوة محمد (ص)، وهذا الانكار أيضاً لا ينهض على أدلة علمية ولا منطق عقلي: وإنّما هي المواريث العقائدية الكنسية التي أملت على المستشرقين كل ما يقولون.

إنّ الاستشراق كتب عن القرآن دراسات، لا سبيل إلى حصرها. وهذه الدراسات مظهر من مظاهر الاهتمام البالغ بكتاب الله، وهو اهتمام ليس مبعثه معرفة الحقيقة، بل تلمس أوجه التحامل والهجوم على القرآن ووصفه بما لا يليق أن يوصف به.

لقد ترجم الاستشراق القرآن إلى مختلف اللغات الأوربية، وهذه الترجمات أبعد ما تكون عن النص العربي للقرآن من جهة، ومذيلة بالتعليقات والتصورات الفاسدة، من جهة أخرى. كما أنّ الاستشراق كتب عن كل ما يتعلق بالقرآن من حيث مصدره، مضمونه، تاريخه، لغته، علومه، رسمه، وتفسيره... الخ.

إنّ الاستشراق بذل جهداً كبيراً وأنفق أموالاً كثيرة فيما سطر عن كتاب الله،وجاء ما سطره في مجمله لوناً من التخرصات، والأوهام، والظنون، والافتراء، والتضليل. ومن عجب انّه يزعم أنّ دراساته تخضع للموضوعية والدقة العلمية، وأنّها لا تعرف الأهواء أو السطحية .. وليس أدل على ذلك من الإشارة إلى بعض ما كتبه الاستشراق حول القرآن الكريم، وبخاصة في القضايا التالية:

١ـ مصدر القرآن،

٢ـ محتوى القرآن،

٣ـ تاريخ القرآن،

٤ـ لغة القرآن،

وما دام الاستشراق قد انطلق في دراساته القرآنية من مبدأ الاعتقاد ببشرية القرآن، فقد راح يتلمس له مصدراً آخر غير الوحي الإلهي، وتكاد كل الآراء التي صدرت عن المستشرقين في هذا، تُرجِع مصدر القرآن إلى عاملين رئيسين: أحدهما داخلي والآخر خارجي.

ويراد بالعامل الداخلي، البيئة الجغرافية والحياة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب.

وأمّا العامل الخارجي، فيراد به اليهودية والنصرانية ومعتقدات وعادات الأمم الأخرى.

العوامل الداخلية

إنّ من المستشرقين[١٠] من ذهب إلى أنّ القرآن قد تأثر في بنائه العقائدي بهجير الصحراء ورمالها وأعرافها، كما أنّه تأثر أيضاً بتنوع البيئة بين مكة والمدينة؛ حيث اتسم الأسلوب القرآني بمكة بخصائص، تختلف عن خصائص القرآن المدني.

ويقول المستشرق «جب»: «إنّ محمداً ـ ككل شخصية مبدعة ـ قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أُخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار العقائدية السائدة في زمانه والدائرة في المكان الذي نشأ فيه. وانطباع هذا الدور الممتاز لمكة يمكن أن تقف على أثره واضحاً في كل أدوار حياة محمد، وبتعبير إنساني: إنّ محمداً نجح؛ لأنّه كان واحداً من المكيين»[١١].

ويقول أحد المستشرقين الألمان : «إنّ الإسلام لم يظهر إلى الوجود عقيدةً دينيةً، بل محاولة للإصلاح الاجتماعي، تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة وـ على الأخص ـ إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين؛لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين، وهو إنّما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر وسيلةً للضغط المعنوي وتأييد دعوته».

وما يقوله الاستشراق حول أثر البيئة في القرآن لون من التخرص و

الوهم الذي يمليه التعصب والجهل، فمن يتلُ كتاب الله ـ دون أن يكون في تلاوته معصوب العقل بمعتقدات خاصة، يسعى للانتصار لها ـ يوقن بأنّ هذا الكتاب ليس من وحي البيئة، وأنّه من وحي الخالق، وأنّ أية محاولة لنفي صفة الوحي الإلهي عنه لا يمكن أن تكون علمية أو مبرّأة من الهوى.

إنّ الاستشراق فيما زعمه من تأثر القرآن بالبيئة المكية في حرها وأوضاعها الاجتماعية، إنّما يريد تأكيد دعواه بأنّ القرآن بشري المصدر؛ وأنّه لهذا محليّ المفاهيم والتعاليم، فلا يصلح لغير البيئة التي انبثق عنها وانعكست قيمها وظروفها على ما اشتمل عليه من أحكام وتشريعات؛ وهذا يعني أنّ دعوة محمد (ص) ليست عالمية، وأنّ هذا القرآن ليس مهيمناً على الكتب التي نزلت من قبله.

وقد ظن الاستشراق أنّ مابين القرآن المكي والمدني من بعض التفاوت في الأسلوب والمضمون يؤكد زعمه بأثر البيئة ودورها في تلوين الاسلوب القرآني، وهذا خطأ محض؛ لأنّ القرآن كلّه لا تفاوت بين مكيه ومدنيه، من حيث الإعجاز؛ فآياته البينات المحكمات كلها سواء في البلاغة، وكلها سواء في تحدّي ومجابهة المشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

أمّا التفاوت بين المكي والمدني، فلا علاقة له بالبيئة؛ وإنّما هو تفاوت الموضوعات ومقتضى الحال في التعبير عنها، فما نزل في مكة غلب عليه تقرير أصول العقيدة وتحرير الانسان من أوهام الشرك وجهالة الوثنية، في حين

غلب على ما نزل بالمدينة تقرير التكاليف والتشريعات من عبادات، ومعاملات، وجهاد مسلح؛ فاختلف الاسلوب القرآني طوعاً لهذا، من حيث طول الآيات وقصرها، ولكنه لم يختلف ـ كما أومأت آنفاً ـ من حيث الاعجاز.

ومن المستشرقين من ذهب إلى أنّ المصدر الرئيس للقرآن الكريم هو شعر أمية بن أبي الصلت؛ للتشابه الكبير بينهما في الدعوة إلى الوحدانية، ووصف الآخرة، وقصص أنبياء العرب القدماء. وزعم هذا المستشرق انّ المسلمين قد محوا شعر أمية وحرموا انشاده؛ ليستأثر القرآن بالجدة وليصبح النبي هو المنفرد بالوحي الإلهي(١٢).

وهذا الرأي عار عن الصحة، فما عول النبي على شعر أمية في نظم القرآن، وما حارب المسلمون هذا الشعر؛ ليظل القرآن هو النموذج الفريد في موضوعه. ولو كان الأمر كما رأى ذلك المستشرق، لأورد الرواة اتهام قريش للرسول (ص) بأنّه أخذ القرآن من شعر أمية، وهم كانوا أحرص من الاستشراق على التماس حجة ـ ولو باطلة ـ يتكئون عليها في نفي نبوة محمد (ص).

ويؤكد بطلان ذلك الرأي وأنّه لا وزن له علمياً ما ذهب إليه الدكتور طه حسين (ره) في معرض رده على تلك الشبهة أي شبهة؛ تأثير شعر أمية في كتاب الله، لقد قال: «إنّ هذا المستشرق وأمثاله يشكون في صحة السيرة نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك الى الجحود، فلا يرون في السيرة مصدراً

تاريخياً صحيحاً؛ وإنَّما هي ـ حسب قولهم ـ طائفة من الأخبار والأحاديث، تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق. وهم يقفون هذا الموقف من السيرة النبوية ويغلون فيه، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن! مع أنّ أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون آخر؟ أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرأوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات [١٣]؟

إن التشكيك في أخبار السنة النبوية أوانكارها وعدم الشك في شعر أمية يتلائم مع منهج الاستشراق في الطعن في نبوة محمد (ص) ونفي أن يكون القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب هذا النبي. وأي باحث منصف يقضي على الاستشراق وفقاً لذلك المنهج بأنّه لا يبرأ من التعصب، ولا يعرف الأمانة العلمية، وأنّه يخضع في آرائه لمواريثه الدينية وأهوائه الشخصية.

ويحاول مستشرق آخر أن يثبت أنّ مصدر القرآن ليس البيئة الصحراوية أو أشعار أمية وغيره، بل مصدره الحنفاء [١٤]؛ وهم جماعة، يعتقدون بوحدانية الله ولم يعبدوا الأصنام. ولكن هؤلاء الحنفاء كانوا قبل البعثة قلة، يعدون على الأصابع، وكانت عقيدتهم يلفها الغموض فيما يتعلق بوجود الله ووحدانيته، وليس لديهم تصور واضح سليم للتشريعات

والقوانين. إن كل ما يعرف عنهم أنّهم كانوا ضائقين ذرعاً بما كان عليه قومهم من وثنية، وجهالة، وضلالة، ولكن ما كانوا يستطيعون أن يقدموا لهم البديل الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ثم لا يمكن أن تكون تصرفاتهم من المصادر الرئيسة للقرآن الكريم الذي يحتوي على تعاليم وأحكام واضحة جلية،لالبس فيها ولا غموض؛فدعوى هذا المستشرق لاتقل خللاً في الرأي أو فساداً في الاستنباط من دعاوى غيره، الذين أجهدوا عقولهم؛ ليثبتوا بشريةالقرآن وأنّه صدى لواقع البيئة التي عاش فيها محمد (ص).

العوامل الخارجية

أمّا العوامل الخارجية التي أَمَدَّت محمداً ـ فيما يزعم الاستشراق ـ بالأحكام والتعاليم التي وردت في القرآن، فهي الحكم، المواعظ ، المبادئ، الأوامر، النواهي والقصص الواردة في كتب التوراة، الإنجيل والكتب السماوية الأخرى(١٥).

والاستشراق يبرهن على ماذهب إليه ـ من تأثيرالعوامل الخارجية ـ بما بين القرآن والكتب السماوية السابقة من تشابه في القصص وبعض الأحكام، وكذلك باتصال محمد (ص) ببعض الأحبار والرهبان سواء في رحلاته، أو مكة وضواحيها، أو يثرب والواحات القريبة منها، وتلق عنهم ما جاء في تلك الكتب، وانتقى منها ما شاء أن ينتقي، وصاغ من كل ذلك كتاباً، وقال بأنّه أوحي إليه، ولم يوح إليه شيء.

والتشابه الذي يظن الاستشراق أنّه دليل على أنّ مصدر القرآن هو الكتاب المقدس وغيره، يدل على العكس من هذا؛ إنّه يشهد على انّ القرآن وسائر الكتب السماوية مصدرها واحد، ولكنه يمتاز عنها بأنّه معجزة ويحفظه من التحريف والتبديل. غير أنّ الاستشراق ـ وفقاً للأهواء التي تسيطر عليه ـ يعكس القضية، فبدلاً من أن يرى في هذا التماثل وحدة المصدر، يراه آية النقل والتأثر.

وعن علاقة محمّد (ص) ببعض الأحبار والرهبان وأخذه عنهم، لا يذكر التاريخ أنّه (ص) جلس من بعض هؤلاء مجلس المتعلم، أو أنّه ـ قبل أن يوحى إليه ـ كان قد تردد على صومعة أو دير؛ لدراسة التعاليم اليهودية والنصرانية.

وإذا كان قد نقل أنّ محمداً(ص) لقي، وهو غلام، أحدَ الرهبان[١٦]، وكان ذلك في صحبة عمه أبي طالب، فلم يثبت أنّ هذا الراهب شرح لمحمد (ص) الكتاب المقدس أو لقنه بعض التعاليم الدينية، وكل ما تذكره الروايات عن هذا اللقاء أن الراهب حذّر عمّ الغلام من اليهود؛ لأنّهم إن عرفوا ما عرفه عن محمد (ص)، سيقتلونه حسداً وحقداً، ويضاف إلى هذا أنّ عُمْرَ محمد (ص) وقت ذلك اللقاء لم يكن يتيح له أن يدرس الأديان وكتبها، ولم يتحدث إلا بعد نحو ثلاثين عاماً؛ بعد أن أُوحي إليه.

وإذا كان محمد (ص) أيضاً قد قام، وهو شاب، ببعض الرحلات التي

كان يتاجر فيها بمال السيدة خديجة (رض)، فلم يثبت كذلك أنّه لقي في هذه الرحلات أحداً من الذين يترهبون أو يلمون باليهودية والمسيحية، فضلاً عن أنّ الفكر المسيحي الذي كان منتشراً بين الغساسنة بسوريا لم يحرر هؤلاء العرب من مواريثهم الجاهلية، كما أنّه لم يكن فكراً مستقيماً، وكان لدى بعض المستشرقين مجموعة من الخرافات المنفِّرة والطقوس الدينية المنحلة.

ويتضح ممّا أسلفته عن موقف الاستشراق من مصدر القرآن أنّ بين المستشرقين اختلافاً في الرأي حول هذا المصدر، وإن كانوا متفقين على أنّ الوحي الإلهي ليس مصدراً له؛ وهذا يعني أنّ هؤلاء المستشرقين لم يبدأوا دراستهم للقرآن دون الاعتقاد المسبق ببشريته وكذب محمد في دعوته. فراح كل منهم ينقب عن مصدر لهذا الكتاب، فكان التناقض والاضطراب في تحديد هذا المصدر؛ مما يؤكد أنّهم في دراستهم ناكبون عن المنهج العلمي، ومكبَّلون بمعتقداتهم وأهوائهم.

ولو كان الاستشراق قد أخذ نفسه بالمنهج ـ كما يدّعي ـ لاهتدى إلى أنّ القرآن ليس بشري المصدر، وأنّ محمداً (ص) لم يأت به من عنده، ولم يتأثر بأحد (في تأليفه). فلو كان القرآن كما يذهب المستشرقون، فكيف يمكن تفسير ما ورد من آيات، تعاتب الرسول على بعض ما اجتهد فيه؟ كقوله تعالى: ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق**

لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾(١٧).

لقد عوتب الرسول في هاتين الآيتين عتاباً شديداً؛ لأنّه قَبِل الفداء من أسرى بدر، وهو تصرف أقرب إلى طبعه الرحيم، ولعله فعل هذا أملاً في هداية قومه وتأليف خصمه، ولكن الله تبارك وتعالى نبهه إلى ما هو حق في ميزان الحكمة الإلهية.

كذلك عوتب الرسول (ص) لمّا أذن للمنافقين الذين استأذنوه بالتخلف عن غزوة تبوك، قال تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾(١٨).

والقرآن مع هذا اشتمل على طائفة من الإشارات العلمية والقضايا الغيبية التي تنفي أن يكون بشرياً، وقد شهد بذلك كل الذين درسوا تلك الإشارات دراسة موضوعية من المسلمين وغيرهم.

ثم.. كيف نفسر هذا الاختلاف الكبير بين القرآن والسنّة، من حيث الأسلوب، وطريقة الأداء، ومنهج التعبير، ما دام المصدر واحداً وهو محمد (ص)؟ وكيف يستطيع شخص واحد ـ مهما كان بارعاً صنّاعاً ـ أن ينطق بأسلوب معين، فيقول: هذا قرآن من عند الله، ثم ينطق بكلام آخر، يختلف عنه في الأسلوب، فيقول: هذا حديث من كلامي؟

بل كيف يتسنى التمييز والتفريق في عقل واحد بين نوعين من الكلام، لكل منهما طابعه المتميز وصياغته الخاصة؟ أليس الأسلوب معبراً عن

شخصية صاحبه؟

ثم ما الذي كان يَصدّ الرسول عن نسبة شرف القرآن العظيم إليه لو كان من انشائه وتأليفه؟[١٩].

إنّ حديث الاستشراق عن مصدر القرآن لا يسنده دليل ولا برهان، ولو كان لدى المستشرقين دليل صريح، لأدلوا به. ولو عرفوا شخصاً أو أشخاصاً كان لهم دورهم في مدّ محمد (ص) بما يدّعون، لأخبرونا به. إنّهم حاولوا أن يثبتوا بشرية القرآن، فأطلقوا لخيالهم العنان، فجال وصال في متاهات التخمين والأوهام، وهو مع هذا لا يعدم وسيلة لاضفاء طابع العلمية والموضوعية على آرائه، بيد أنّ النقد الفاحص لها ينتهي ـ لامحالة ـ إلى اثبات بطلان تلك الآراء، وأنّها مجرد خيالات وظنون، وأنّها بعيدة كل البعد عن العلمية والموضوعية.

وإذا أردنا أن نتعرف على موقف الاستشراق من محتوى القرآن، فإنّ الذي لا ريب فيه أنّ موقفه من المصدر، سيقود في يسر إلى الوقوف على ذلك الموقف؛ لأنّ القول بأنّ محمداً صاغ تعاليم الكتاب المقدس وأعراف الحياة الصحراوية يعني أنّ محتوى ما صاغه مزاج من هذه الأعراف وتلك التعاليم.

وأجتزئ هنا بالإشارة إلى عَلَمين من أعلام المستشرقين، وهما ـ فيما أرى ـ يعكسان ـ بوجه عام ـ نظرة الاستشراق حول محتوى القرآن أو تعاليمه، والحكم عليها.

وهذان المستشرقان هما: «بودلى» و «برو كلمان» والأوّل فـرنـسي والثاني ألماني. وقد عقد الأوّل في كتابه: «الرسول حياة محمد»[٢٠] فصلاً، تحدث فيه عن أسس العقيدة الإسلامية، وهو يعتمد في هذا عـلى القـرآن الكريم. وقد استهل حديثه بمقدمة، توحي إلى القارئ بأنّ الكاتب يـؤمن بسلامة تلك العقيدة؛ فهو ينفي عن الرسول الكذب والادعاء، والنقل مـن كتب السابقين. ثم يعرج بعد ذلك بطريقة فنية إلى التصريح بأنّ دعوة محمد فيها من اليهودية والمسيحية والوثنية، وأنّ كل مبادئ الإسلام قد جـاءت صدى للبيئة التي عاش فيها الرسول؛ فالزكاة في نظر «بودلي» غير واجبة، وقد فرضها محمد رأفة بالضعفاء الذين شاهدهم يعذبون في أوديـة مكـة. وهذا خطأ محض والزكاة لم يفرضها محمد؛ وإنّما فرضها الله، وهي ذات رسالة اجتماعية واقتصادية مهمة؛ إذ أنّها تحقق التكافل بين أبناء الأمة، وتـسهم في توزيع الثروة على نحو ما، وتؤكد أنّ المال مال الله، ولا ينبغي أن يحوزه أحد بطريق محرم أو يمنع الحقوق المشروعة فيه.

ويتحدث «بودلي» عن الجنة والنار، فيقول وما الجنة إلا تجسيم ما رآه محمد من نعيم خارج بلاد العرب في أثناء رحلاته .. وما الجحيم إلا تجسيم مشاق الصحراء المحرقة الماحلة التي تحيط بمكة؛ فهو ينعت الرسول بالتضليل والكذب، وأنّ الجنة والنار فكرة، ابتدعها محمد؛ ليحمل الناس على الإيمان بما يدعوهم إليه، وكأنّه يريد أن يقول للمسلمين: إنّ اليوم الآخر خرافة، وإنّ

المؤمنين به قوم مضللون.

ويقول «بودلي» عن العلاقة بين البيئة والتشريعات الإسلامية: «وقد أملت الظروف المحلية كثيراً من القوانين الإسلامية؛ فيرجع تحريم لحم الخنزير الى رداءة مراعي الخنازير وقذارتها في الشرق، فهي أحط من مثيلاتها في الغرب، كما أنّ العرب لا يعرفون كيف يطيبون لحومها، ولا يعرفون طريقة طهوها».

والواقع أنّه لا رداءة المراعي، ولا الجهل بكيفية طهو لحوم الخنازير يعتبر السبب في تحريمها، بل يرجع ذلك التحريم إلى علل أخرى، منها ما كشف عنه البحث العلمي الحديث، من الخطر النفسي والجسمي على الانسان إذا تناول لحوم هذه الحيوانات.

وكذلك يعلل تحريم الخمر إلى: «شغف العرب بنوع من المشروبات الروحية المستخرجة من البلح، فلو كانت بلاد العرب بلاد نبيذ، فربما أدى ذلك إلى عدم التفكير جملة في تحريم الخمر».

ولكن تحريم الخمر لا يرجع إلى كونها مستخرجة من بلح أو غيره؛ وإنّما يرجع إلى تأثيرها الضار على العقل، ومن ثم كان كل مسكر حراماً؛ حماية لنعمة العقل من الفساد.

وأمّا «بروكلمان»، فقد عقد في الجزء الأوّل من كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» فصلاً موجزاً عن تعاليم محمد، أعطى فيه صورة مشوهة لأركان

الإسلام الخمسة، وهو في هذا لا ينفك مذكراً بأنّ هذه الأركان قد انبثق عنها فكر محمد ومعظمها قد استقاه من التوراة، والإنجيل، وعادات الأمم الخالية؛ فاليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب فكرة يهودية، نسج محمد حولها كثيراً من الأوهام والأكاذيب، والصلاة طقوس فارسية، وتقبيل الحجر الأسود عبادة وثنية، ويقول عن قانون الجزاء في الإسلام: «أمّا القانون الجزائي في الإسلام، فقد ظل على مستوى، يقرب من السذاجة، وهو لا يمثل إلا تقدما ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القوانين الوثنية القديمة».

والحقيقة أنّ اليوم الآخر ليس فكرة يهودية، وليست الصلاة طقوساً فارسية، وليس تقبيل الحجر الأسود عبادة وثنية، وقانون العقوبات في الإسلام ليس تقدماً ضئيلاً بالنسبة إلى القوانين الوثنية؛ فهو في مستوى أرفع من القوانين الحديثة التي وضعت في عصر الحضارة والتقدم الفكري.

وهكذا أرجع «بروكلمان» كما أرجع «بودلي» تعاليم القرآن إلى عادات الأمم القديمة، ومعتقداتها، وكذلك إلى البيئة التي نشأ فيها محمد. وهذا كله افتراء، وتضليل، ويمثل جهلاً فاضحاً، أو تشويهاً مقصوداً لحقائق، لا يرتاب فيها إلا كل من سيطر التعصب على عقله ووجدانه.

وبلغ التعصب ببعض المستشرقين أن ذهب إلى أنّ اشتمال القرآن على مبادئ عادلة وفضائل كاملة لا يعني أنّه من عند الله (٢١)، ويوازن بين القرآن والتوراة والإنجيل، ويرى أنّهما أرقى من القرآن؛ فالتعاليم التي جاءا بها

أشرف من تعاليمه، ومن ثم فليس وحياً إلهياً، وإنّما هو تلفيق من شتى المصادر الدينية وغيرها.

وخاض الاستشراق في تاريخ القرآن، فشكك في الوسائل التي استخدمت لحفظه، ومن ثم نفى أن يكون القرآن قد دون في عهد النبوة، وحكم على ما دونه أبو بكر (رض) بأنّه يختلف في مضمونه وترتيبه عمّا كان يحتفظ به بعض الصحابة، وانّ مصحف عثمان لم يلق قبولاً من كل المسلمين، وأنّه في عهد عبد الملك بن مروان ادخلت على القرآن تغييرات وتعديلات.

لقد ادعى «بلاشير» أن فواتح السور بالحروف المقطعة ليست من القرآن، وأنّها رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأوّلين قبل أن يوجد المصحف العثماني، فمثلاً حرف الميم كان رمزاً لصحف المغيرة.. والهاء لصحف أبي هريرة .. والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص .. والنون لصحف عثمان .. فهذه الحروف لدى «بلاشير» إشارات لملكية الصحف، وقد تركت في مواضعها سهواً، ثم ألحقها الزمن بالقرآن فصارت قرآناً(٢٢).

وقد نفى «بلاشير» أن يكون ما نزل من القرآن في مكة قد دون في عهد الرسول (ص) ، وأنّ بدء التدوين كان بعد الهجرة، ومع ذلك لم يكن هذا التدوين صحيحاً ودقيقاً فسقطت آيات كثيرة منه، فضلاً عن أنّ بعض ما كان مكتوباً عليه من العسب والرقاع قد ضاع(٢٣).

وقال «جولد زيهر» في مستهل كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي»:

فلا يوجد كتاب تشريعي، اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقائدياً على أنّه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصورِ تداولِـهِ في مـثل هـذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في النص القرآني.

وكما كانت آراء المستشرقين في مصدر القرآن غـير عـلمية وغـير موضوعية، كانت آراؤهم في تاريخ القـرآن كـذلك. فـعلى أي أسـاس بـنى «بلاشير» رأيه في أنّ فواتح السور بالحروف المقطعة ترمز إلى الصحف التي كانت عند الصحابة؟ إنّ هذا المستشرق ذهب به الخيال والافتراض مذهباً غريباً وبعيداً عن الحق، وهو فيما ذهب إليه لا يملك دليلاً علمياً ولا يستطيع أن يبرهن على تلك النظرية الفاسدة في تفسير الحروف المقطعة التي بُدِئَتْ بها بعض السور، وكانت من شواهد الإعجاز القرآني.

وأمّا رأيه في تدوين القرآن، فهو يحاول به أن يثبت أنّ القرآن الذي يتلوه المسلمون الآن قد ضاع منه الكثير؛ لأنّ ما نزل من القرآن في الفترة المكية يبلغ تقريباً $\frac{19}{30}$ من القرآن كله. فإذا تسرب الشك إلى أنّ القرآن في مكة لم يدون، فهذا يعني أنّ ما بأيدي المسلمين اليوم ليس هو القرآن كلّه.

وهذا الرأي لا يقوم على دليل، ولا يسنده أثر تاريخي، وهو مجـرد فرض، لا يمكن إثباته، ولا البرهنة على صحته، فضلاً عن أنّ كل المصادر التي أرّخت للفترة المكية أشارت إلى كتّاب الوحي الذين قـاموا بأقـدس مهمة في التاريخ؛ وهي تدوين آخر وحي الله إلى خلقه. ولكن الاستشراق ـ

وهذا دأبه ـ يحلو له أن يفتعل الشكوك، ويختلق الظنون، ويطعن فيما هو مجمع عليه.

و «جولد زيهر» في حكمه على اضراب النص القرآني، يلقي القول على عواهنه، فلم يقم هذا الحكم على فكر سليم وبحث علمي دقيق؛ وإنّما قام على الرغبة في تشويه الكتاب الذي أُحكمت آياته.

إنّ هذا المستشرق معروف بأحقاده، وتعصبه، وممالاته للصهيونية، وهو في كل آرائه يحاول أن ينفث سمومه، وأن يقدم الإسلام، ونبيه، وكتابه الخالد، والتراث العلمي الإسلامي في صورة منفِّرة، تسيء الى هذا الدين والمؤمنين به، ومن ثم كانت دراساته عن الإسلام والمسلمين كلها سموماً، وافتراءات، وأحقاداً، وتخرصات.

والاستشراق لا يكتفي بالحكم على النص القرآني بضياع قدر منه، واضطراب صياغته، بل يتهم الصحابة (رض) بأنّهم أضافوا إلى هذا النص ما ليس منه، وأنّ الأهواء السياسية لعبت دورها في تغيير بعض الآيات أو حذفها. فالمستشرق الفرنسي «كازانوفا» يذهب في كتابه «محمد ونهاية العالم»(٢٤) إلى أنّ هناك آيتين، يشك في صحة نسبتهما إلى الوحي الإلهي، يرجح أن يكون أبو بكر هو الذي أضافهما على إثر موت النبي، فأقره المسلمون على ذلك، وهما قول الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه

فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ [٢٥] وقوله: ﴿إنك ميت وإنّهم ميتون ثم إنّكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [٢٦].

وهذا المستشرق بما قاله يعبر عن جهله بالسيرة النبوية، وبأسباب النزول، وبفقه سياق الآيات؛ ولأنّه يريد أن يثير شكاً، يتلمس مطعناً، يظن به بلوغ الغاية في زعزعة ثقة المسلمين بصحّة كتاب الله؛ وذلك انّ الآية الأولى استشهد بها أبو بكر (رض) حينما رأى الناس قد عصف بهم الحزن بعد وفاة النبي (ص) ومنهم من لم يصدق أنّه قد مات، وكان لهذا أثره؛ فالنفوس الحزينة قد زايلها ما سيطر عليها واستبد بها من آلام، والآية قد نزلت بسبب محنة المسلمين يوم أحد، وما أشيع بأنّ الرسول قد قتل، واختلف المسلمون أيواصلون القتال أم لا؟ فأنزل الله الآية؛ لتبين أنّ محمداً (ص) كغيره من الأنبياء سيموت، فإذا مات، تخليتم عما جاءكم به ودعاكم إليه، ومن فعل ذلك، فإنّ عاقبة أمره خسران.

ونزلت الآية الثانية بالمدينة وتعني ابلاغ النبي بأنّه سيموت كما تموت كل الخلائق، فكل نفس ذائقة الموت.

وإذا كان الأمر كما ذهب إليه ذلك المستشرق وأنّ أبا بكر اخترع الآيتين، فكيف يسكت المسلمون على ذلك ويوافقونه على هذا التزوير المتعمد، مهما يكن الباعث عليه، وهم أشد حرصاً على كتاب الله؟

إنّ الاستشراق تكلم في تاريخ القرآن كلاماً، يدور كلّه في فلك اتهام

المسلمين في القرن الأوّل بأنّهم حذفوا، وغيروا، وأضافوا؛ ولكي يلبسوا هذا الاتهام ثوب الحقيقة العلمية، عوّلوا على بعض الآثار الضعيفة والروايات الموضوعة، ولم يرجعوا إلى المصادر الأصيلة والأقوال الصحيحة.

والمستشرقون الذين لا يجيدون النطق بالعربية ـ مهما امتدت دراساتهم لها وقراءتهم في تراثها ـ تطاولوا على لغة القرآن الكريم التي هي أرفع بيان في العربية؛ فادعى بعضهم بأنّ هذا الكتاب غير فصيح وغير بليغ وأنّ به أغلاطاً نحوية، وتاريخية، ومتناقضات لفظية [٢٧].

ويسلم بعض المستشرقين بفصاحة القرآن، ولكن ـ مع هذا ـ يذهب إلى أنّه لا يلزم من فصاحة كتاب من الكتب أن يكون من عند الله، ويضرب مثلاً لذلك بوجود بعض الآثار الأدبية العالمية كالإلياذة والأوديسة[٢٨] لهوميروس.

إنّ حديث الاستشراق عن لغة القرآن أدل برهان على الجهل، وسوء النية، وخبث الهدف؛ فالأعجمي الذي لا يقدر أن يبين عما في نفسه بالعربية، هو الذي يقضي على القرآن بأنّه ليس فصيحاً وانّ به أغلاطاً نحوية!. إنّ هذا الحكم شهادة للقرآن بأنّه في الذروة من الفصاحة والبيان كما يقول الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادة لي بأنّي كامل

إنّ عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن ـ مع

حرصهم الشديد على ذلك ـ لأوضح برهان على تفرد القرآن في العربية بإعجازه البياني، فضلاً عن إعجازه التشريعي والعلمي، فلا سبيل لوضعه في منزلة أي كتاب بشري أو تشبيهه به مهما تكن فصاحته وبلاغته، ولكن الاستشراق ـ من منطلق نظرته إلى القرآن وهو أنّه ليس وحياً من عند الله ـ يلجأ إلى كل ما يسوّغ له القول ببشريته، واضطراب آياته، والعبث بتدوينه، وتدخل الأهواء والمصالح الخاصة في الاضافة إليه، والحذف منه، ومحاولة النيل من مستواه البلاغي، واللغوي. وهذا يؤكد أنّ دراسات الاستشراق عن القرآن تفتقر إلى الموضوعية والأمانة العلمية، وأنّها لا تبتغيا سوى التشويه، ونفي أن يكون هذا الكتاب آخر وحي الله إلى الناس وأن تكون له الهيمنة على كل الكتب التي نزلت من قبله؛ وذلك حرصاً منه على منع تأثير القرآن وانتشاره ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾(٢٩).

وبعد، فإنّ حديث الاستشراق عن القرآن حديث ذو شجون ويحتاج استقصاؤه والتعليق عليه إلى مجلدات، وما أَثبتُّهُ من ذلك الحديث هو غيض من فيض، ولعل فيه ما ينبه إلى الخطر الفادح الذي يكمن في دراسات الاستشراق عن كتاب الله، دستور الأمة الخالد، ومصدر سعادتها في الدارين، وأنّها به خير أُمّة أُخرجت للناس.

رابعاً: السنّة النبوية:

من المجمع عليه بين الناس أنّ السنّة النبوية الصحيحة هي المصدر

الثاني للتشريع الإسلامي، فلم تكن مهمة الرسول (ص) مقصورة على البلاغ، وإنّما كانت ـ إلى جانب هذا ـ تفسير مايحتاج من آيات الكتاب العزيز إلى تفسير، فهي أشبه ما تكون بالمذكرة التفسيرية بالنسبة للقانون، توضح مقاصده وتشرح أصوله وقواعده.

هذه السنّة النبوية وقف المستشرقون منها موقفاً، لا يقل مجافاة للمنهج العلمي عن موقفهم من القرآن الكريم، فهم قد حاولوا أن يثبتوا أنّ المسلمين ـ على اختلاف طوائفهم ـ قد أسهموا في الوضع على الرسول ونسبة الأحاديث كذباً إليه، وأنّ الأهواء والمنافع والاختلافات السياسية والمذهبية كانت من وراء حركة الوضع؛ لأنّ تفرق المسلمين بعد الفتنة الكبرى وظهور الأحزاب المختلفة نجم عنه صراع الافتراء؛ انتصاراً للاتجاهات المتباينة والآراء المتعارضة.

ويكاد يجمع المستشرقون على أنّ السنّة لم تعرف التدوين إلا في القرن الثاني، وهذا يعني أنّه لم يكن هناك تدوين في القرن الأوّل، لا في حياة الرسول (ص) ولا في حياة الصحابة من بعده، ومن ثم تعد الكتب المعوّل عليها في السنّة لدى المسلمين ليست صحيحة كلها، وإنّ كتاباً كالبخاري على حد تعبير بعض المستشرقين يشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق أنّها لم ترد فيه.

ومن اليسير الرد على تلك الدعاوى التي يأخذ بها المستشرقون في

تشكيك المسلمين في صحة السنّة النبوية، فما لجأ عالم مسلم إلى وضع حديث، والذين اشتركوا في وضع الأحاديث كانوا ـ بوجه عام ـ من الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وأرادوا بهذا الدين والمؤمنين به الضر والشر، فهم بعداوتهم وأحقادهم قد كذبوا ووضعوا، ولكن الله قيض للأمة علماء أمناء مخلصين مازوا الخبيث من الطيّب [٣٠]، ودونوا السنّة الصحيحة، كما دونوا الموضوع منها، حتى تكون الأمة على بينة من سنّة نبيها، فضلاً عن الدراسات التي خدمت السنّة، وأصبح يطلق عليها «علوم الحديث» فقد درست السنّة ـ متناً وسنداً وفقهاً ـ دراسة، لم تعهد في تاريخ البشرية بالنسبة لسنّة نبي من الأنبياء.

إنّ التراث العلمي الخاص بعلوم الحديث يدحض الرأي الذي يتهم علماء المسلمين بوضع الأحاديث خدمة للمآرب الخاصة، وإنّ موقف المستشرقين من تاريخ السنّة مضطرب ومتناقض، ويثبت أنّ الاستشراق لا يدرس السنّة دراسة موضوعية، وأنّه يريد من وراء أبحاثه تشكيك المسلمين في المصدر الثاني لدينهم.

وأمّا أنّ السنّة ظلت دون تسجيل حتى القرن الثاني [٣١]، فهو خطأ بيّن، يدركه كل من له أدنى إلمام بتاريخ العلوم الإسلامية وتدوينها. فهذا التاريخ يؤكد أنّ علماء المسلمين بذلوا جهداً رائعاً في تدوين السنّة منذ القرن الأوّل وفق منهج علمي دقيق، كان به هؤلاء العلماء أسبق من سواهم

وبخاصة الأوربيين في وضع أصول المنهج العلمي في توثيق النصوص وتحقيقها، وأنّ علماء أوربا قد أخذوا منهج المسلمين ونسبوه إلى أنفسهم بغياً وعدواناً.

وأهم المستشرقين وأكثرهم كلاماً في السنّة «جولد زيهر» و «شاخت» وهما يتفقان في النتيجة العامة لدراستهما، ويمثلان النظرة الاستشراقية من السنّة النبوية، وإن كان بينهما بعض الاختلافات في عدة آراء جزئية أو فرعية.

إنّ «جولد زيهر» يذهب (٣٢) إلى أنّ الأحاديث جاءت نتيجة للتطور الديني والسياسي في القرنين الأوّل والثاني، وأنّ الأحاديث الموضوعة لا يمكن اسنادها إلى الأجيال المتأخرة وحدها، بل هناك أحاديث عليها طابع القديم، وهذه إما قالها الرسول، أو من عمل رجال الإسلام القدامى، وأنّ الأحاديث ـ مع هذا ـ أخذت من العهد القديم والجديد وفلسفة اليونان حكم الفرس والهنود .. إلخ.

وأمّا «شاخت» (٣٣)، فيصف علماء المسلمين كافة في القرون الثلاثة الأُولى بأنّهم كانوا كذابين وملفقين غير أمناء، وأنّ الأحكام الفقهية لا ترجع إلى أصول دينية؛ وإنّما ترجع إلى أحاديث مكذوبة، وضعها الفقهاء، واخترعوا لها أسانيد، ويقول في هذا: «إنّ أكبر جزء من أسانيد الأحاديث اعتباطي، ومعلوم لدى الجميع أنّ الأسانيد بدأت بشكل بدائي، ووصلت

إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وكانت الأسانيد ـ كثيراً ما ـ لا تجد أقل اعتناء، وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضع لها الأسانيد»(٣٤).

ومثل هذه الآراء التي قال بها «جولد زيهر» و «شاخت» لا تسعى للتشكيك في السنّة والحكم على أمهات مصادرها وكتب الصحاح منها بأنّها مشحونة بالموضوعات فحسب؛ وإنّما تسعى أيضاً لتصوير الأجيال الاولى في تاريخ الأمة الإسلامية بأنّها أجيال لا تؤتمن على الدين، وأنّ الصراع بينها كان من وراء ذلك الركام من الأحاديث المفتراة؛ وهذا يعني أنّ قبول الأمة لكل ما نقل عن تلك الأجيال يحتاج إلى إعادة نظر، فالغاية ليست علمية ولا منهجية، بل غاية هدمية تسلك ـ من أجل الوصول إلى ما تسعى إليه ـ كل وسائل التلبيس، والتضليل، وتلمس الشبهات، والأخذ بالروايات المدخولة، والآراء المنكرة وكأنّها الحقيقة التاريخية التي لا امتراء فيها، في حين تهمل المصادر الأصيلة ولا تذكر الروايات الصحيحة؛ لأنّها تتعارض مع تلك الغاية، غاية التشكيك والتشويه ووصفِ خير القرون بأنّهم كانوا مفترين، ملفقين، متصارعين على حطام الدنيا، فأنّى للأمة أن تقبل ما جاء عنهم؟

ويتصل بموقف المستشرقين من السنّة ـ القاضي بأنّها ظلت فترة، تبلغ نحو قرن لم تعرف التدوين، وأنّ الرواية الشفهية كانت الأساس فيما دوّن

من السنّة في مستهل القرن الثاني، وأنّ علماء المسلمين في القرن الأوّل قد أسهموا في وضع كثير من الأحاديث؛ خدمة لمآرب سياسية أو رغبة في مقاومة أسباب الفساد والانحراف في عهد الدولة الاموية ـ يتصل بهذا الموقف ما ينكره المستشرقون من أنّ الرسول (ص) أرسل ـ قبل وفاته ـ رسله برسائل منه إلى الملوك والرؤساء، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان ممّا عللوا به موقفهم أنّه لا توجد في سجلات هؤلاء الحكام ما يفيد أنّ رسائل كهذه أرسلت إليهم.

وهذا التعليل غير مقبول، فما كان في ذلك العهد تسجيل لمخاطبات الرؤساء كما يحدث اليوم، فضلاً عن انّ قصور هؤلاء الرؤساء، وبخاصة في الروم وفارس قد تعرضت أكثر من مرة للنهب، والتدمير، وضياع كل الوثائق الداخلية والخارجية.. ثم لماذا يرفض المستشرقون ما جاء في كتب المؤرخين المسلمين حول تلك الرسائل، في حين يقبلون من هؤلاء المؤرخين كل ما يتفق واتجاهات الاستشراق في إثارة الشبهات، والافتراءات، والأباطيل؟

وشاء الله تبارك وتعالى أن يكشف أكاذيب المستشرقين ويفضح أساليبهم الملتوية بعد أن ظنوا أنّ افتراءاتهم قد انطلت على الناس. فقد عثر في الأردن عام ١٩٧٧ م على النسخة الأصيلة للرسالة التي بعث بها الرسول (ص) إلى هرقل قيصر الروم، وثبت من فحص المادة التي كتبت عليها وهي رقعة من الجلد، وكذلك من تحليل الحبر الذي كتبت به، ومن دراسة الخط

الذي استخدم في كتابة الرسالة، والأقلام التي كتبت بها أنّها جميعاً أصيلة، لم يلحقها أي زيف.

ولعل أهم ما في هذا الكشف الخطير أنّ الذين أجروا الفحوص والتحاليل والدراسات هم من علماء الغرب المتخصصين في هذه الأمور، وليسوا من علماء المسلمين؛ حتى لا يقال أنّهم افتعلوا النتائج افتعالاً متأثرين بدينهم (٣٥).

والواقع انّ انكار المستشرقين لواقعة إرسال الكتب إلى الملوك والرؤساء ليست له أهمية في ذاته؛ وإنّما ترجع أهميته إلى أنّه يتخذ وسيلة لإثبات أنّ الإسلام ليس ديناً عالمياً، بل دين محلي خاص بالعرب وحدهم دون غيرهم من الناس. ومن ثم تعد كل الفتوحات التي قام بها المسلمون منبثقة عن أطماع هؤلاء في ثروات الشعوب؛ فهم محتلون مستغلون، وليسوا أصحاب دين صحيح، يدعون إليه بالتي هي أحسن.

إنّ الاستشراق يدرك أنّ العمل بالقرآن على الوجه الصحيح لا سبيل إليه إلا بالعمل بالسنّة. فإذا طعن فيها، وأساء إلى رواتها، وشكك في صحة مصادرها، فإنّ الأمة لا تستطيع أن تعمل بكتاب ربّها؛ فهي الحرب ضد الإسلام وضد المسلمين، وهو الغزو الفكري الذي يعد أفدح خطراً من الغزو العسكري.

إنّ الدراسات الاستشراقية في السنّة كالدراسات في القرآن غفيرة،

بيد أنّها كلّها تتخذ لها منهجاً واحداً وإن تباينت بعض معالمه وسماته. وهذا المنهج لا يعرف الموضوعية، ولا يحرص على معرفة الحقيقة، ولا يريد خيراً للأمة.

وقد أسلفت آنفاً أنّ التراث العلمي للمسلمين حول السنّة يدحض كل المفتريات والشبهات التي روّج لها الاستشراق، ويكشف عن اضطراب منهجه، وأنّ آراءه في المصدر الثاني كآرائه في المصدر الأوّل، لا وزن لها علمياً ولا يعتد بها في مجال البحث والدراسة.

خامساً: الفقه الإسلامي:

تراثنا الفقهي ثروة عظيمة لم تعرف البشرية مثيلاً لها في تاريخها الطويل، وهذه الثروة ثمرة جهود رائعة لأجيال متتابعة من العلماء والمجتهدين، وهؤلاء على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم الفقهية كانوا في اجتهادهم يعتمدون على المصادر الأساس للشريعة الغراء، وليس لهم إلا دقة الفهم، وإنسانية النظرة، ومحاولة الاحاطة بكل المشكلات التي تحتاج إلى معرفة موقف الشريعة منها؛ حتى يكون الناس على بينة من أُمور دينهم، فلا يقدمون على عمل محظور، ولا يَدَعون عملاً يأمر به الدين أو يحض عليه.

وهذا ـ التراث من ناحية أخرىٰ ـ أصيل في نشأته، وأصيل في نظرياته، فلم يكن له من رافد سوى مصادره الأساس وما تمتع به الفقهاء من فهم ثاقب وادراك واع لمقاصد الشريعة وغاياتها، وأنّ الأحكام التكليفية لا حرج فيها، وأنّ طابع اليسر غالب عليها، ومن ثم كان للبيئة

والعرف تأثير في بعض الأحكام من حيث الصحة وعدمها.

وهذه الحقيقة العلمية حول تراثنا الفقهي ومكانته وأثره في الفكر الإنساني وقف منها المستشرقون موقفاً، لا يعرف الموضوعية العلمية. صحيح أنّ منهم من أثنى على هذا التراث، واعتبره أعظم جهد علمي عرفته الإنسانية، وأنّ المسلمين خليقون بأن يفخروا به، ولكن هذه الأصوات التي ترتفع بالثناء والتمجيد تنظر إلى هذا التراث على أنّه مجرد فكر إنساني؛ لأنّها لا تؤمن بمصدره الإلهي، ولا يمكن أن نتوقع سوى هذا؛ لأنّ انكار نبوة محمد (ص) ينسحب على إنكار كل تراث علمي؛ استهدى القرآن، وقام على خدمته، والتزم بمبادئه وقواعده، ومع هذا تعد هذه الأصوات ـ على قلتها ـ شهادة إكبار لتراثنا الفقهي، نبه بعضَ الغافلين منا إلى أهميته ووجوب الاعتماد عليه في وضع التشريعات والقوانين.

إنّ جمهور المستشرقين لا يعترف بقيمة علمية للفقه الإسلامي، ويحاول نفي كل جديد، جاء به الفقهاء المسلمون، ويعزو ذلك إلى مصادر غير إسلامية، وفي مقدمتها القانون الروماني.

إنّ الذين درسوا تاريخ الفقه الإسلامي من المستشرقين يرون ـ بوجه عام ـ أنّ هذا الفقه (٣٦) اعتمد على القانون الروماني، بل إنّ منهم من غلا غلواً كبيراً، وذهب إلى أنّ الشرع المحمدي ليس إلا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية للبلاد العربية. فهذا

رأي لا يصدر عن عالم، يعرف شيئاً من التاريخ، أو يملك قدراً محدوداً مـن البصر والفهم للعقلية العربية الإسلامية، أو ادراكاً لما أحدثه القرآن والسنّة النبوية في التشريع الإسلامي والحضارة الإسلامية في مختلف النواحي.

وجملة الأدلة التي يأخذ بها هؤلاء المستشرقون في دعواهم تـقوم على ما رأوه من الشبه بين بعض أحكـام التـشريع الإسـلامي والقـانون الروماني، ثم إلى مـا يحـدثه ـ بـلا ريب ـ التـقاء الحـضارات والعـادات والأعراف القانونية من تأثير متبادل.

ولكن هل هذا التشابه ـ إذا كان موجوداً ـ يدل على التأثير أو أنّ الفقه الإسلامي ليس إلا القانون الروماني مع شيء من التعديل في بـعض النواحي؟

إنّ الاجابة عن هذا هي النفي بلا ريب، فإنّ الوضع الصـحيح الذي يقرره علم الاجتماع فعلاً أنّه متى التقت حضارتان لأمة غالبة وأمة مغلوبة كان التقليد ـ حين يوجد ـ من الأمة ذات الحضارة المغلوبة؛ لأنّ المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب.

ثم إنّ التشابه في بعض الأحكام القانونية أو في غير ذلك من نواحي الفكر المختلفة أمر طبيعي بين الأمم جميعاً، لا فرق بين العرب والرومـان أو غيرهم. وبذلك لا نستطيع ـ لمجرد هذا التشابه ـ الحكم بأنّ هذه الأمة هي التي أخذت عن تلك وليس العكس، بل قد يكون مرجعه إلى ما هو معروف

من أنّ العقل الإنساني السليم يتشابه في كثير من ألوان التفكير ونتائجه، دون حاجة إلى تفسير هذه الظاهرة بالأخذ والتقليد.

ثم هل عرف المسلمون القانون الروماني كما عرفوا فلسفة اليونان؟ لقد نقل المسلمون هذه الفلسفة وأفادوا منها وهم يفخرون بذلك، أمّا في ناحية الفقه والتشريع فلم يجدوا حاجة مطلقاً للأخذ عن غيرهم؛ لأنّ لديهم من كتاب الله وسنّة رسوله وتراث الصحابة والتابعين ما يغنيهم عن الاستعانة بغيرهم في هذه الناحية. ولو كان الأمر على غير هذا، لحفظ التاريخ كتاباً واحداً أو رسالة واحدة، نقلوها إلى اللغة العربية من قانون الرومان، أو لرأينا ولو مصطلحاً واحداً من مصطلحات هذا القانون في كتب الفقه والتشريع وماأكثرها، كما بقي لنا الكثير من تراث الفرس الأدبي والعلمي بجانب ما نقلوه من تراث اليونان العلمي والفلسفي.

بل إنّ التشريع الروماني ـ على العكس ـ قد تأثر بالفقه الإسلامي وأفاد منه فيما زيد عليه أيام النهضة الأوربية، وذلك عن طريق الثقافة والعلوم الإسلامية التي كانت من عوامل هذه النهضة. ومن شواهد هذا ما في القانون الفرنسي من تأثر واضح بالفقه الإسلامي وبخاصة المالكي؛ لأنّه كان السائد في الأندلس وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط.

وممّا يدل على نفي تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني، وجود نُظُم في ذلك القانون، لا يعرفها هذا الفقه، مثل نظام التبني لولد معروف نسبه،

والوصاية على المرأة؛ حتى لا تستطيع التصرف إلا بإذن صاحب الوصاية عليها. وكذلك وجود نُظُم في الفقه الإسلامي لا أصل لها في القانون الروماني، مثل الوقف والشفعة وموانع الزواج بسبب الرضاع. وفضلاً عن ذلك لا يقيم القانون الروماني علاقة بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية بخلاف الفقه الإسلامي فإنّه لا يفصل بينهما. والفقه الإسلامي يقوم على أساس المساواة بين الأفراد أمام القانون، وهذا غير موجود في القانون الروماني .. إلى غير ذلك من العوامل التي تؤكد النشأة الخاصة للفقه الإسلامي، وأنّ ما زعمه المستشرقون من نسبة قواعد هذا الفقه أوصوره إلى مصدر روماني إنّما هو وهم واهم.

وقد حاول المستشرقون ـ في إثبات ما ذهبوا إليه من نفي أصالة الفقه الإسلامي إنْ في مصدره وقواعده أو في تدوينه وتبويبه ـ التركيزَ على ثلاثة من أعلام الفقهاء؛ بقصد تشويه الجهد العظيم الذي قام به هؤلاء الفقهاء، وإثبات أنّهم كانوا عالة على غيرهم من اليونان والرومان.

وأوّل هؤلاء الفقهاء هو الإمام الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧ هـ فقد ذهب بعض المستشرقين ـ دون دليل ـ إلى أنّ هذا العالم درس الفقه البيزنطي في مدرسة بيروت القانونية، وظن هؤلاء المستشرقون أنّ نشأة الأوزاعي في بيروت تعضد زعمهم وتجعل لرأيهم حجة مقبولة.

ولكن هذا الزعم لا يسنده دليل، وهو مجرد ظن آثم؛ لأنّ مدرسة

بيروت القانونية لم يكن لها وجود في القرن الثاني [٣٧] الهجري، والتراث الفقهي للإمام الأوزاعي لا يحتوي على ما يفيد أنّه تأثر باتجاه غير إسلامي في آرائه. ومن يقرأ ما تركه هذا الإمام من مؤلفات وعلى رأسها كتابه في السير ورد الإمام أبي يوسف عليه، لا يخالجه ريب في أنّ الأوزاعي لم يتأثر بالقانون البيزنطي، وأنّ فقهه يقوم على الأثر أكثر من قيامه على الرأي، فهو ينتمي إلى مدرسة الحديث وإن عده ابن قتيبة في كتابه «المعارف» من فقهاء الرأي.

أمّا الفقيه الثاني الذي يرى المستشرقون أنّه تأثر بمصادر غير إسلامية في مؤلفاته الفقهية فهو الإمام محمد بن الحسن الشيباني المتوفى ١٨٩هـ هذا الإمام هو أوّل من دون الفقه الإسلامي على منهج علمي، لم يسبق به،كما أنّه أوّل من كتب في العلاقات الدولية كتابة علمية دقيقة شاملة، بحيث عُدَّ في الأوساط الدولية في العصر الحاضر أوّل رائد في مجال التأليف في القانون الدولي، وانشئت باسمه جمعيات متعددة في بعض بلدان أوربا وأمريكا تحمل اسم «جمعية أصدقاء الشيباني للقانون الدولي».

ماذا قال المستشرقون عن هذا الإمام؟ لقد راعهم أن يكون الإمام الشيباني بعبقريته الفذة قد دون الفقه الإسلامي تدويناً علمياً رائعاً، وكتب في العلاقات الدولية كتابة شاملة كاملة، فحاولوا أن يقللوا من أهمية ما قام به من جهد علمي، وأن يثبتوا أنّه لم يكن مجدداً ومبتكراً؛ وإنّما سار على

الطريق الذي سلكه من سبقه، واستفاد من تراث علمي غير إسلامي، فقد قالوا إنّه في تبويبه وترتيبه للفقه الإسلامي تأثر بترتيب كتاب «المشنا اليهودي»، فهو إذن مقلد وليس مجدداً.

وكتاب «المشنا» هذا يضم السنة الموسوية، وقد قام بشرحه عدد من الأحبار، وسُمّيَ الشرح بـ«الجمارة»، ومن المشنا والجمارة يتألف «التلمود»، وهو يعتبر مرجع اليهود في أحكام العبادات والمعاملات. وهذا التلمود لم يكن مكتوباً باللغة العربيّة، ولم ينقل إلى هذه اللغة إلا في أوائل القرن الرابع الهجري. فكيف استطاع الإمام الشيباني أن ينسج على منواله في ترتيب المواد الفقهية، وقد عاش في القرن الثاني، ولم يكن يعرف لغة غير العربية؛ حتى يمكن أن يقال إنّه اطلع على التلمود في بلغتِهِ الأصلية؟ فدعوى تأثر الإمام الشيباني بالمشنا لا أساس لها؛ لأنّه لا يوجد دليل علمي عليها.

ومن المصادفات أنّ الذين أسلموا من علماء اليهود لم يكن من بينهم من تخصص في دراسة التلمود أو الشريعة الموسوية؛ حتى يكون هذا مسوغاً للظن بأنّ التراث اليهودي في مجال التشريع انتقل إلى المسلمين عن طريق هؤلاء، الذين ارتضوا الإسلام ديناً.

وثالث الفقهاء الذين كثر كلام المستشرقين عنهم هو الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ وهذا الإمام يعد أوّل من كتب في علم أصول الفقه كتابة متكاملة وصلت إلينا. وهذا العلم مفخرة الفكر الإسلامي، فهو يؤصل لمنهج

البحث الفقهي تأصيلاً رائعاً، يشهد لعلماء المسلمين بأنّهم كانوا الرواد لغيرهم في هذا المجال؛ مجال الكتابة في المناهج العلمية.

ولأنّ الشافعي كان أوّل من دون هذا العلم، كان الهجوم عليه، وكان الاتهام بأنّه كان يعرف المنطق اليوناني حين وضع رسالته في الأصول، وأنّه درس القانون الروماني في مدرسة بيروت،فأقدرته هذهالدراسة على منهجه العلمي الدقيق في التأليف. وهذا كله غير صحيح فما عرف الشافعي المنطق اليوناني ولا درس في مدرسة بيروت؛ لأنّها لم تكن موجودة في القرن الثاني.

إنّ الإمام الشافعي ولد في غزة، وعاش أيامه الأولى في البادية، يدرس العربية وأدبها، ثم طلب العلم بعد ذلك على أئمة علماء عصره في الحجاز والعراق، وتولى بعض الأعمال في اليمن، ثم أقام مدة في العراق، وكان له في هذاالقطر مذهب فقهي، عرف بالمذهب القديم؛ لأنّه بعد أن ترك العراق، ورحل إلى مصر أنشأ فيها مذهباً آخر، سمي بالمذهب الجديد، وكان مرد الاختلاف بين المذهبين إلى اختلاف الأعراف بين أرض الرافدين ووادي النيل. وما وقف عليه الشافعي من سنن وآراء لم يكن على علم بها من قبل، فكيف استطاع الشافعي أن يدرس الفقه البيزنطي كما يدّعي المستشرقون؟

إنّ كل الحقائق الموضوعية تؤكد أصالة الفقه الإسلامي، كما تؤكد أنّ فقهاءنا الأعلام في آرائهم ومؤلفاتهم لم يتأثروا بمصادر أجنبية. وكل ما صدر عن الاستشراق في هذا الموضوع لا دليل عليه، وهو ضرب من سياسة نفي

كل فضل للمسلمين، وأنّ كل ما قدموه من تراث علمي لم يبتكروه؛ وإنّما نقلوه عن سواهم. ولكن هيهات أن تحجب مثلُ هذه الآراءِ الفاسدةِ الحقيقةِ الخالدة(٣٨).

تلك خلاصة لأهم آراء الاستشراق في العقيدة الإسلامية، ونبي الإسلام، ومصادر هذا الدين، وهي تقدم البرهان على أنّ كل الآراء الاستشراقية في غير ما تحدثت عنه لا تخرج عن نطاق التشويه والافتراء؛ لأنّ تراث المسلمين الفكري والحضاري يرتكز أساساً على كتاب الله وسنّة رسوله (ص). فإذا كان للاستشراق تجاه القرآن الكريم والسنّة ذلك الموقف المجافي لأبسط قواعد المنهج العلمي، فإنّه تجاه العلوم التي نبغ فيها المسلمون وأسدوا بها أيادي بيضاء للعالم كلّه، لن يكون منصفاً وموضوعياً، فهذه العلوم ـ على تباين مجالاتها ـ نشأت خدمة للكتاب العزيز؛ حتى يفقه الناس أحكامه وتعاليمه؛ من أجل العمل الصحيح بها، وليس منطقياً أن يحاول الاستشراق نقض الأساس، ثم يعمل على حماية البناء القائم عليه من عوامل التدمير!.

إنّ الاستشراق يتهم الأدب العربي بضعف و فقدان التجربة الإنسانية الصادقة، ويرى أنّ التاريخ الإسلامي سلسلة من الأكاذيب، وهو ـ مع هذا ـ يفسر أحاديثه وفق الأهواء والافتراضات الفاسدة(٣٩)، ويذهب الى أنّ الفلسفة الإسلامية ليست شيئاً آخر إلا الفلسفة اليونانية دُوّنت بحروف

عربية، وأنّ المسلمين في العلوم التجريبية لم يكونوا سوى نقلة للعلوم القديمة؛ فهم مجترون مقلدون، وليس لهم ابتكار علمي يذكر (٤٠).

والاستشراق يلح دائماً على أنّ العربية لا تصلح لغة للعلم المعاصر وأنّ قواعد نحوها وصرفها عسيرة، وأنّ على المسلمين أن يتخلوا عن هذه اللغة الصحراوية؛ لأنّ تمسكهم بها سيحول دون نهضتهم وإسهامهم الإيجابي في تطوير الحضارة وسعادة البشرية..

وهكذا لا يعترف الاستشراق للمسلمين ودينهم ولغتهم وتراثهم بفضل؛ بل هو يعزو تخلفهم الراهن إلى هذا التراث وذلك الدين، ويقضي عليهم عبر التاريخ بالتبعية أو الضحالة الفكرية. ولا يقدح في هذا الموقف أنّ من المستشرقين من قال كلمة حق، فهؤلاء الصادقون مع أنفسهم ـ كما أشرت سابقاً أكثر من مرة ـ كصوت خافت وسط عاصفة عاتية. ومن ثم وقر في أذهان عامة المثقفين من الغربيين أنّ المسلمين أمة متخلفة قديماً وحديثاً، وأنّهم ليسوا أهلاً لحياة حرة عزيزة وأنّ على الغرب أن يبسط سلطان نفوذه عليهم، ويستحوذ على الثروات التي في بلادهم، ويجعل لثقافته الكلمة العليا بينهم.

هوامش الفصل الثاني

١- يطلق مصطلح العلوم الإسلامية في العرف المعاصر على الدراسات التي تتصل بالإسلام اتصالاً مباشراً كالتفسير والحديث والفقه، وهذا الاطلاق ـ وإن أخذ طابع المصطلح ولا مشاحة فيه ـ لا يعني إسلامياً انّ ما سوى تلك الدراسات كالأدب والطب والزراعة، وغيرها من العلوم النافعة ليست إسلامية؛ وذلك لأنّ مفهوم العلم في الإسلام واسع الدائرة، ويشمل كل علم يحمي الانسان من أمراض النفس والعقل والجسم، ويتيح له أن يعمّر الأرض كما أراد الله، فذلك الاطلاق يصبح إذن من باب العام الذي أريد به الخاص.

ومع ذلك تجد الاشارة إلى أنّ عدوى تغلغل المفاهيم غير الإسلامية في المجتمع الإسلامي ـ لأسباب مختلفة ـ قد رسّخت في أذهان عامة المثقفين المسلمين أنّ من العلم ما هو ديني، ومنه ما ليس كذلك؛ ولذا وجب التأكيد على هذه الحقيقة، وهي أنّ مصطلح العلوم الإسلامية من قبيل العام الذي خصصه العرف، وأنّ العلوم الإسلامية يجوز أن تطلق على كل علم نافع للبشرية.

٢- مجلة العالم الإسلامي «The Muslim World» اكتوبر سنة ١٩٥٥م، نقلاً عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس سنة ١٩٨٥م، ج ١، ص ٢٢.

٣- العقيدة والشريعة، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين، ط. القاهرة، ص ٦٢.

٤- انظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، ص ٤٢.

٥- انظر: المستشرقون ورسالة الرسول، الاستاذ محمد أحمد الغمراوي، مجلة الثقافة، العدد ١٨، ١٢ ربيع الأوّل سنة ١٣٥٨ هـ ص ٢٨.

٦- انظر مجلة الأزهر، المجلد ٤٢، ص ٣٦٦.

٧- انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، الاستاذ عباس محمود العقاد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٣، ص ٢٥٤.

٨- انظر: مجلة الثقافة، العدد ١٨، ص ٢٩.

٩- انظر: الموافقات، ط. السلفية بالقاهرة، ج ٣، ص ٢٠٠.

١٠- انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، الشيخ مصطفىٰ عبد الرزاق، ط. القاهرة، ص ٨٥.

١١- انظر: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، الدكتور سامي سالم الحاج، مالطا، مركز دراسات العالم الإسلامي، ج ١ ص ٣٢٠.

١٢- انظر: الظاهرة الاستشراقية، ص ٣٢٧. وأمية بن أبي الصلت شاعر مخضرم كان يخبر أنّ نبياً يبعث قد أظل زمانه، وكان يأمل أن يكون هذا النبي، فلما بُعث محمد (ص) كفر به حسداً، ولما سمع الرسول بعض شعره قال: آمن لسانه وكفر قلبه. (وانظر: أمية بن أبي الصلت: حياته وشعره، دراسة بهجت عبد الغفار، وزارة الأعلام، بغداد سنة ١٩٧٥م).

١٣-انظر: في الأدب الجاهلي، الدكتور طه حسين، ط. القاهرة، ص ١٤٣.

١٤- انظر: مدخل إلى القرآن الكريم، الدكتور محمد عبد الله دراز، ط. دار القلم، الكويت، ص ١٣١.

١٥- انظر: الظاهرة الاستشراقية، ج ١، ص ٣٩٣.

١٦- هناك من المستشرقين من يرى أنّ لقاء محمد (ص) براهب، وهو غلام، مجرد قصة من نسيج الخيال (وانظر: مدخل إلى القرآن، ص ١٣٤)

١٧- سورة الأنفال، الآية ٦٧ ـ ٦٨.

١٨- سورة التوبة، الآية ٤٣.

١٩- انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ج ١ ص ٣٢.

٢٠- ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور عبد الحليم محمود وآخر.

٢١- انظر: المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، ص ١٥٣.

٢٢- نظرات استشراقية، الدكتور محمد غلاب، ص ٤٢.

٢٣- انظر: الظاهرة الاستشراقية، ج ١، ص ٣٧٥.

٢٤- انظر: الظاهرة الاستشراقية، ج ١، ص ٣٧٧.

٢٥- سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

٢٦- سورة الزمر، الآية ٣٠ ـ ٣١.

٢٧- انظر: المستشرقون والإسلام، ص ١١٨.

٢٨- انظر: المصدر السابق، ص ١٤٤.

٢٩- سورة الأنفال، الآية ٣٠.

٣٠- انظر: علوم الحديث ومصطلحه، الدكتور صبحي الصالح، بيروت، ط. دار العلم للملايين، ص ٢٧١.

٣١- انظر: السنّة قبل التدوين، الدكتور محمد عجاج الخطيب، ط. القاهرة.

٣٢- انظر: الظاهرة الاستشراقية، ج ١، ص ٤٩٨.

٣٣- انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ج ١، ص ٦٣ وما بعدها.

٣٤- انظر: المصدر السابق، ص ١٠٤.

٣٥- انظر: مجلة منار الإسلام، العدد الخامس، السنة السادسة.

٣٦- انظر: العقيدة والشريعة في الإسلام، «جولد زيهر»، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين.

٣٧- لقد دمرت مدرسة بيروت القانونية قبل الفتح الإسلامي لبيروت بنحو قرن (وانظر: بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني، الدكتور صوفي أبو طالب، ص ٥٢).

٣٨- انظر في هذا الموضوع: بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني، الدكتور صوفي أبو طالب، و: الفقه الإسلامي والقانون الروماني، الشيخ محمد أبو زهرة، و: التشريع الإسلامي وأثره في التشريع الغربي، الدكتور محمد يوسف موسى، و: أُصول القانون، الدكتور عبد الرزاق السنهوري والدكتور حشمت أبو ستيت.

٣٩- انظر: مجلة الأمة، العدد ٤٧، ص ٢٦.

٤٠- انظر: مجلة الأزهر، المجلد ٢٤، ص ٦٢، ٨٠.

الفصل الثالث

تقويم الفكر الاستشراقي

أومأت في غضون الحديث عن مراحل تاريخ الفكر الاستشراقي إلى طرف من آراء المستشرقين وبيان قيمتها العلمية، وكان الفصل الثاني لعرض المزيد من هذه الآراء في بعض القضايا مع التعليق عليها، ولكن تقويم هذا الفكر يحتاج ـ مع هذا ـ إلى تفصيل القول فيه بعض التفصيل، ربطاً بين المقدمات والنتائج، والأسباب والآثار؛ لكي يكون ذلك التقويم موضوعياً وعلمياً. ولهذا أعرض فيما يلي بشيء من التفصيل للعلاقة بين الاستشراق والتبشير، ثم إلى موقف الباحثين المسلمين من الفكر الاستشراقي أو الحكم على هذا الفكر في ميزان النقد العلمي، مع توضيح الأسس التي قام عليها هذا الحكم، وماذا يجب على الأمة إزاء هذا العدوان الفكري الذي ما فتئ يواصل سعيه الحثيث لتحقيق أهدافه الباغية؟

بين الاستشراق والتبشير

يتضح لكل من يستقرئ تاريخ الاستشراق والتبشير أنّهما وجهان لعملة واحدة، وأنّهما لا يختلفان في الغاية؛ وإنّما يختلفان في الوسيلة أحياناً.

وإذا كان التبشير تاريخياً قد ظهر بعد الاستشراق، فإنّ هذا نشأ أساساً لخدمة التبشير، ومن ثم كان الجيل الأوّل من المستشرقين من القساوسة والرهبان، وما زال حتى الآن للمبشرين دور إيجابي في النشاط الاستشراقي، وكم شهدت مؤتمرات المستشرقين إسهام عدد من المبشرين ببحوث وتعليقات، تنضح بالسموم والأكاذيب ومحاولة زعزعة الأسس الراسخة للعقيدة الإسلامية؟

إنّ الاستشراق والتبشير يبغيان محاربة الإسلام في دياره، كما يبغيان محاربته لدى من يجهلون حقيقته أو يحاولون التفكير في اعتناقه. والغاية هي أن يتوارىٰ الوجود الإسلامي بأصالته، وشموخه، وعزته، وقوته ويحل محله الوجود النصراني.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذل والمال الذي أُنفق، لم يستطع التبشير في الماضي على مدى عدة قرون، أن ينشر بين المسلمين عقيدة، تخالف عقيدتهم، وإن نجح في تشويه صورة الإسلام وتنفير أهل أوربا منه. وقد عزا المبشرون فشلهم في تنصير المسلمين إلى أنّ هؤلاء قوم قساة القلوب، وأنّهم يتعلقون بأوهام وأكاذيب القرآن ويستهينون بالكتاب المقدس [١].

وليس في القرآن أكاذيب، كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المفترين، والمسلمون ليسوا قساة القلوب، فهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وهم لإيمانهم الراسخ بأنّ الحق الذي جاءهم به محمد (ص) لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو مهيمن على كل الكتب التي أنزلت من قبله؛ لم يلقوا بالاً لهؤلاء المخرفين والمحرفين، والذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

وقد ذهب الحنق والتعصب الحاقد ببعض المبشرين بسبب ذلك الفشل إلى التصريح بأنّ رسالة المبشر ليست هي نقل المسلم إلى المسيحية، فهذا تكريم له، وهو غير خليق؛ وإنّما ينبغي أن تقتصر تلك الرسالة على إخراج المسلم من دينه، وتركه بلا عقيدة يلوذ بها، ويصبح كتائهٍ في البيداء يهلكه الجوع والعطش، أو تفتك به الوحوش الضارية ..!

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين كان التبشير كما كان الاستشراق في أوج قوته وتأثيره، وصار كلاهما سلاحاً من أفتك أسلحة التدمير المعنوي وسلاحاً أيضاً من أمضى أسلحة الاحتلال العسكري. لقد كثرت في هذين القرنين المؤسسات التبشيرية، وأغدقت الأموال عليها إغداقاً، وامتدت أطماعها إلى كل الشعوب الإسلامية، وكذلك إلى كل الشعوب التي تعيش حالة من التخلف الديني، وبخاصة في افريقيا وآسيا، وقام بين كل هذه المؤسسات تعاون ولقاءات كثيرة للتخطيط والتنسيق؛ لكي يؤتي سعيها أكله كما تود الكنيسة وقادة الاستعمار، حتى انّ الطوائف المسيحية ـ على ما بينها من خلاف في أصول العقيدة النصرانية، وما جره عليها هذا الخلاف من صراع دموي في بعض العصور ـ تناست كل هذا وتصافحت

أيديها في سبيل منع انتشار الإسلام بين غير المؤمنين به، والقضاء عليه بين أتباعه، أو الحد من تأثيره فيهم وسلطانه عليهم.

فالاستشراق والتبشير يسعى كلاهما لهدف واحد، كلاهما كان ـ وما يزال ـ رداءً للاحتلال بأشكاله المختلفة الظاهرة والكامنة، والفرق بينهما أنّ الاستشراق غلب عليه الأخذ بصورة البحث، وادعى لبحثه الطابع العلمي، في حين غلب على التبشير الاهتمام بمظاهر العقلية العامة؛ وهي العقلية الشعبية.

لقد استخدم الاستشراق الكتاب والمقال في المجلات والدوريات، وكرسي التدريس في الجامعة، والمناقشة في المؤتمرات العلمية العامة. أمّا التبشير، فقد سلك سبيل التعليم في دور الحضانة، ورياض الأطفال، والمراحل الابتدائية، والثانوية للذكور والإناث على السواء، كما سلك سبيل العمل الخيري الظاهري في المستشفيات، والملاجئ، ودور اليتامى واللقطاء، ولجأ إلى النشر والطباعة في الوصول إلى غايته.

وهذا التفاوت في الوسائل ـ كما أسلفت ـ لا يعني تفاوتاً في الغاية، ومن ثم كانت دوافع الاستشراق هي بعينها دوافع التبشير، وإن ظهر في مجال الاستشراق من يحرص على معرفة الحقيقة ويخلص في البحث، ولكن هؤلاء عدد محدود، وهم لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأنّ أبحاثهم

المجردة عن الهوى لا تلقى رواجاً، لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين؛ فهي لذلك لا تدر عليهم ربحاً ولا مالاً؛ ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين ولم يكن لها ـ إن وجدت ـ تأثير يذكر في الحد من حملات الافتراء التي قام عليها الفكر الاستشراقي في الماضي والحاضر (٢).

ودوافع الاستشراق ـ على تنوعها ـ تدور في فلك أمرين:

١ـ تشويه الإسلام والمسلمين؛

٢ـ التمكين للاستعمار المادي والمعنوي.

وتشويه الإسلام يكون بالطعن في مبادئه، وأنّها ليست وحياً من عند الله وأنّ محمداً لفّقها من الديانات التي ظهرت قبله ومن عادات العرب وتقاليدها، وأنّ البيئة الصحراوية طبعت تعاليم هذا الدين بطابع إقليمي خاص؛ بحيث أصبحت بهذا الطابع محلية لا تصلح إلا لهذه البيئة، ودعوى صلاحيتها للتطبيق الدائم تفتقر إلى أدلة إثبات.

وأمّا تشويه المسلمين، فإنّه يكون بتصويرهم على نحو، ينفر منهم؛ فهم همج، وسفاكو دماء، ولا يعرفون غير الانغماس في الملذات الجسدية.

وهم يتخذون من تشويه الإسلام والمسلمين وسيلة؛ لمنع انتشار الإسلام بين الأوربيين وغيرهم من الوثنيين. كما أنّهم يتخذونه أيضاً وسيلة من أهم وسائل التبشير بالمسيحية بين المسلمين؛ فهم ـ بما يتقولون ويفترون ـ

يُدخِلون على من لا زاد لهم من الثقافة الإسلامية الوهنَ في العقيدة، وهذا أول طريق التبشير.

ويتمثل التمكين للاستعمار ـ بأشكاله المختلفة ـ في تلك الآراء التي تصدر عن الاستشراق، والتي يحاول بها توهين القيم الإسلامية في نفوس المسلمين، وتقطيع أواصر القربى بينهم، والتنديد بحالهم في المجالات الدولية؛ وبذلك تضعف ثقة المسلمين بأنفسهم وتراثهم الحضاري، كما تضعف الوحدة الجامعة بينهم، ومن ثم يخضعون لما تمليه عليهم مصالح الاستعمار من مبادئ وأفكار (٣).

وإذا كان من الباحثين من يضيف إلى هذين الدافعين دوافع أُخرى، كالدافع التجاري، والسياسي، والمزاجي الشخصي، فهي دوافع فرعية، وترتبط ـ مع هذا ـ ارتباطاً نفسياً بالدافع الاستعماري الصليبي؛ فهو المحرك الأوّل لكل الدوافع باستثناء الدافع العلمي الخالص، وهو نادر ولا جدوى منه في محيط العمل الاستشراقي.. فهل تختلف دوافع التبشير عن دوافع الاستشراق؟

إنّ المتتبع لتاريخ التبشير وأسلوبه في الدعوة إلى ما يدعو إليه ينتهي ـ لا محالة ـ إلى الجزم بأنّ مهمة التبشير هي بعينها مهمة الاستشراق، وأنّ كل خطط المبشرين وأبحاثهم ومؤتمراتهم تتغيَّا هدفاً أساساً، وهو إنشاء عقلية عامة، تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامي، والعمل على منع ارتقاء المسلمين؛

في ارتقائهم تهديد خطير للمصالح الاستعمارية. وقد حدد رسالةَ المبشرين «بلفور» وزير خارجية بريطانيا وصاحب الوعد المشؤوم بقوله: «إنّ المبشرين في نظر الاستعمار هم عيونه التي تقوم بإطْلاع الدول الغربية على النواحي التي تهمها معرفتها من عقائد المسلمين، وآدابهم، والثقافات التي يتأثرون بها»(٤).

فالمبشر ليس داعيةإصلاح وخير؛ وإنّما هو جاسوس، يبحث عن كل ما يكفل لأمته النصر وللمسلمين الخذلان والهزيمة، ولا غرو ان كل التبشير مقدمة للاستعمار ووسيلة من أهم وسائله في قهر الشعوب واخضاعها، وبخاصة الشعوب الإسلامية، فهي بدينها تأبى الخضوع إلا لفاطر الأرض والسماء، والاستعمار عن طريق الاستشراق يدرك هذه الحقيقة. ومن هنا كانت المهمة الأساسة للاستشراق والتبشير معاً هي القضاء على القوة التي أُمِر المسلمون باعدادها دائماً؛ ليرهبوا بها أعداء الله وأعداء الحياة؛ وبذلك ينهار جدار المقاومة المنيع للاحتلال والاستغلال.

يقول «لورانس براون»: «الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع والاخضاع، وفي حيويته، إنّه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الاوربي»(٥).

ولا مجال لسرد النصوص الكثيرة التي صدرت عن المستشرقين والمبشرين، والتي تؤكد أنّ التماثل في الغاية والمقصد بين المبشر الانجيلي

والمستشرق الأكاديمي أمر لا مراء فيه، فهما يعملان في دأب واصرار للتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم؛ لزحزحتهم شيئاً فشيئاً عن خصائصهم الإسلامية وإحلال الخصائص الغربية الشكلية محلها.

إنّ التبشير والاستشراق عملان متكاملان ولا ينبغي التفريق بينهما، فهذا يرفد ذاك بالدراسات والمعلومات التي تعبد أمامه الطريق، وتغذيه نزعة التشكيك في مبادئ الإسلام وحياة المسلمين؛ حتى يستطيع أن يبشر بدعوته النصرانية بينهم، فالتبشير يعمل على ترجمة الفكر الاستشراقي إلى واقع ملموس، ومن ثم كانا عملين متكاملين ..

التبشير اليوم

يلاحظ أنّ التبشير اليوم أقوى نشاطاً وأكثر خطراً من الاستشراق، فهو يمثل هجمة عاتية على الإسلام، ويكاد بنشاطه يغطي العالم الإسلامي كله، ويلجأ إلى أحدث الوسائل التقنية في القيام بمهمته؛ إنّه يستخدم الطائرات، والاذاعات، وأجهزة التسجيل، والسفن التي تجوب البحار والمحيطات وترسو في شتى الموانئ؛ تنشر السموم في إطار كاذب من نشر الثقافة العالمية. كما جد اليوم نشاط للصهيونية بالتبشير باليهودية بين المسلمين وغيرهم، وكانت من قبل لا تؤمن بهذا، وتعد اليهودية عقيدة مغلقة على أبناء بني إسرائيل، ولا يرضى هؤلاء ـ فهم الشعب المختار كما يزعمون ـ أن يدخل سواهم فيها.

وإذا كان الاستشراق في العصر الحاضر قد طور من وسائله، وتخلى عمّا كان يقدم عليه في الماضي إلى حد ما من الجهر بالإساءة إلى الإسلام والمسلمين، وادعى أنّه نشاط علمي خالص، فإنّ التبشير ـ وهو صنو الاستشراق ـ قد جدد من وسائله، وتخلى عن العنف الذي كان يأخذ به أحياناً، وآثر الاسلوب غير المباشر فيما يدعو إليه. يقول وكيل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق بـ«روما»: «إنّ الهدف الذي يتعين على المبشر تحقيقه هو تحطيم قوة التماسك الجبارة التي يتميز بها الإسلام أو ـ على الأقل ـ اضعاف هذه القوة، وأنّ على المبشر أن يدرس ويتفهم جيداً قرآن محمد؛ ليعرف كيف يذكّر الناس بأنّه كانت هناك مدنية سابقة على الهجرة، مدنية مسيحية، وكان على المبشر ألا يدعو إلى تنصير المسلمين بالغلظة والعنف، بل يدعو إلى ذلك باسلوب غير مباشر؛ كأن يسعى إلى التقريب بين وجهات النظر الدينية، ويستخدم الأسلحة السلمية كالصدقات والمعونات وإقامة المعاهد والمدارس والمؤسسات الخيرية»(٦).

وإذا كان وكيل إدارة البعثات التبشيرية في الشرق بـ«روما» يطلب من المبشرين أن يتفهموا جيداً القرآن الكريم، فإنّ هؤلاء يتلقون دراسات لاهوتية، ودورات تدريبية، تمدهم بالأفكار والمبادئ والوسائل التي ينفذون من ورائها إلى تحريف الكلم، وإثارة الشبهات، وإقامة الموازنات التي تصور الإسلام في صورة مُنفِّرة، في حين تضع المسيحية في صورة زاهرة.

والمنظمات التبشيرية ـ على الرغم من عدم نجاحها في تحويل عدد يذكر عن دينه الإسلامي ـ فإننا لا يمكن أن نتجاهل أو ننكر أنّها نجحت بعض النجاح في إثارة الشكوك في نفوس القلة الضعفاء، وفي الصاق بعض النقائص المفتراة بالدين الحنيف، واستطاعت أن تعزل الدين في نفوس بعض المرضى عن الحياة، حتى توهمت طائفة من المفكرين أنّ الدين مسألة شخصية قياساً على المسيحية في أوربا(٧).

ومع ما حققته تلك المنظمات من نجاح في إثارة الشكوك والشبهات، يسيطر عليها القلق من مزاحمة الإسلام لها، وانتشاره بين الوثنيين أكثر من انتشار المسيحية؛ ولهذا تعمل المنظمات التبشيرية ـ في اصرار ـ غريب لمحاربة الإسلام في داره، وهي في سبيل ذلك تعقد المؤتمرات، وتقيم الدورات التدريبية، وتصدر النشرات التي توجه النشاط التبشيري نحو الغاية الأساس، وهي انحلال القبضة الحديدية للإسلام.

ومن هذه النشرات التي تعبر عن آمال التبشير المعاصر، وتصف حالة المنصِّرين مع المسلمين بأنّها حالة حرب، تلك النشرة التي تصدر في أمريكا وتسمى «ديت لاين Date line» وهي نشرة تخطط لاتباعها طرق التنصير، وتحضهم على الانضمام إلى دوراتها التدريبية التي تعقدها؛ لتأهيلهم للقيام بهذه المهمة.

وهذه النشرة موجهة إلى المسيحيين الذين يهتمون بتنصير

المسلمين، وقد جاء في أحدث عدد منها تحت عنوان «لابد أن يفتح الباب إذا واصلت قرعه» ما يلي:

«يا من لهم تمرس أكبر في العمل في ديار المسلمين، أنتم ـ ولا شك ـ تعلمون أنّه لا يُسمح للمسلم ـ شرعاً ـ أن يرتد عن دينه، ويعتنق ديناً آخر، وقد تستنتجون من ذلك استحالة العمل بينهم، وانّه لا مجال للبعثات التنصيرية للعمل هناك، إذ ليس مُصرَّحاً لها بالنشاط، فقد أسدل الستار وَبُنِيَ الحصن بقوة، قد تبدو غير قابلة للاختراق، وخاصة في نظر الذين يغفلون عما يصنعه الرب في العالم العربي، ولكن هناك إحساس لدى العاملين في البلاد الإسلامية أنّنا أمام فتح مبين. صحيح، أنّ بعض الجهات في العالم الإسلامي أصبحت أكثر تعصباً، ولكنها تبقى أقلية شديدة البروز فقط. والذي يدفعنا إلى مضاعفة جهودنا الآن هو ما نراه من تغير في المواقف والمزاج لدى الأغلبية».

وينتقل الكاتب بعد الاشارة إلى الأزمات التي يعاني منها المجتمع الإسلامي، والتي تيسر للمبشر مهمته، وتساعده على بلوغ غايته، إلى الحديث عن البعثات التنصيرية، وعملها اليومي بين المسلمين، وإلى قرارات مؤتمر الكنائس العالمي، وأهداف التنصير إلى عام ٢٠٠٠ م فيقول:

«هناك بعثات تنصيرية فعالة، تعمل حالياً في هذه البلاد المنيعة ظاهرياً، ولكن هذه البعثات تتعرض يومياً إلى توترات وضغوط، لا يمكن

تجاوزها إلا بوسائل روحانية، فنحن شهود عيان لما تصنع يد الربّ في أوضاع قد تبدو مستحيلة، نحن نشهد نتائج، لا يمكن تفسيرها إلا بقبول صلواتنا، إنّ الصلاة هي جانب أعظم من جوانب الشعائر التي يجب على الكنيسة في الغرب الاهتمام بها، بإمكاننا الادعاء بالنجاح في فتح الأبواب على مصاريعها، بإمكاننا دخول أمصار جديدة، بإمكاننا ـ بعون الله وبفضل صلوات المبشرين وتضحياتهم ـ تسريب فرق، همهاالشاغل هو كسر قبضة الإسلام الحديدية. فقد عرف العالم العربي بأنّه أشد المناطق صعوبة على وجه الأرض لدخول الانجيل، ولا يزال غير ملتفت إليه بشكل كاف من قبل رجال الكنيسة. إنّ العالم العربي لم يحصل على هذه السمعة إلا لقلة المتطوعين للتضحية في سبيل إعلاء كلمة الانجيل.

نحن نعيش في مجتمع، يقيس النجاح بالكم،وكلمتنا هذه نظرة للكيف عن طريق الطاعة، وعلينا أن ننظر إلى العالم العربي من منظار الرب، فلو أننا استصعبنا هذه المهمة، لكنا قد ظننا نقصاً في قوة الرب، فكأننا نزعم أنّ هذا المجال يعجز الرب عن العمل فيه، وقد وصلنا مؤخراً في اجتماعات مؤتمر الكنائس العالمي في فرنسا إلى اتخاذ قرارات، حددنا فيها أهدافنا إلى عام ٢٠٠٠ م، وبعد صلواتنا المكثفة الحارة، شعرنا أنّ الرب يحثنا على الانفتاح وعدم التواني في فتح أبواب جديدة، وسيركز العدد القادم من «ديت لاين Date line» على الطريقة الجريئة التي تدخلك في باب المستحيل صارخاً:

افتحوا الأبواب»[٨].

أفلا يشهد هذا الكلام على مبلغ التعصب،والكراهية الدفينة للإسلام، وعلى أنّ أعضاء البعثات التبشيرية ومجلس الكنائس العالمي ينظرون إلى هذا الدين على أنّه ألد أعداء المسيحية، ويدركون ـ عن دراسة ـ أنّ قوة الإسلام تأبى التنصير؟ ومع هذا، لايقنطون، ويعملون دون كلالة، وينفقون الأموال في سخاء؛من أجل تدمير هذه القوة. ومن ثم، كان حض المبشرين؛ لكي ينجحوا في فتح الأبواب التي أحكم إرتاجها، علىٰ أن يصبروا ويستعينوا بالصلاة والثقة في نصر الرب، فهم في حالة جلاد وحرب !!

وتهتم تلك النشرة اهتماماً زائداً بالمغرب العربي؛ ولعل مرد ذلك إلى أنّه الجزء الأقرب إلى أوربا، فهو جسر العبور إلى باقي العالم العربي وإلى إفريقيا، وهو المكان المحتمل منه الخطر على الحضارة الأوربية أكثر من غيره؛ ولذلك توجه إلى المغرب العربي إذاعات تنصيرية، وترسل الدروس التبشيرية إلى آلاف المغاربة عبر البريد من أوربا ومن مركز التنصير الخاص بالعالم العربي (A.W.M.)، كما أنّ هناك فرقاً مدربة للعمل التبشيري بين المغاربة الذين يعملون في فرنسا، ويبلغ عددهم نحو مليوني مسلم.

وتحت عنوان «فرصة سانحة»، جاء في النشرة:

«إنّ العالم الإسلامي هو أحد الأماكن التي تحظى بالقليل من الرعاية، والكثير من الاهمال من قبل المنصرين حالياً، فخمس سكان العالم ـ اليوم ـ

مسلمون، وهو أحد الخطوط الدفاعية الأخيرة التي لابد للانجيل من اختراقها!».

إنّها حرب ضارية، لا تعرف قيماً.. حرب يشنها التبشير والاستشراق دون هوادة.. حرب تأخذ بكل وسيلة، تكفل لها النصر.. حرب تشرع أسلحتها نحو المسلمين كافة. حدثني أستاذ جامعي سافر وزوجته إلى لندن في الصيف الماضي فقال: «كنت أسير مع زوجتي، وهي ترتدي ملابسها الإسلامية، في أكبر شوارع لندن، وفجأة اعترض طريقنا شابان، يحمل كل منهما حقيبة متوسطةالحجم، وقد عرفا من تحجب زوجتي أنّنا مسلمان، وبدأا الحديث معنا بالعربية عن رغبتهما في معرفة عنوان في مدينة الضباب؛ ولأني كنت قد درست في هذهالمدينة من قبل، أعرف أحياءها وشوارعها، فأخذت أصف لهما العنوان الذي يرغبان في معرفته، وفي أثناء ذلك، فتح أحدهما حقيبته، وأخرج منها مجموعة من القصص العربية، وقدمها إليَّ راجياً أن أقبلها كهدية فرفضت أوّلاً، وألحّ في رجائه، فأخذتها منه، ونظرت فيها فإذا هي قصص لبعض الكتاب المصريين مثل نجيب محفوظ واحسان عبد القدوس، وكانت دهشتي.. حين وجدت في داخل كل قصةٍ نسخةً صغيرة الحجم بالعربية من الانجيل، فأعدت القصص إليهما وتركتهما وانصرفت» !!

وإذا كانت وسائل التبشير في الماضي والحاضر ـ على تنوعها ـ تعتمد على اللقاء المباشر، سواء في داخل العالم الإسلامي أو في خارجه، فإنّ

المستقبل القريب يحمل وسيلة جديدة، لا تعتمد على ذلك الأسلوب؛ إذ أنّها تقوم على البث المسموع والمرئي عن طريق الأقمار الصناعية التي تتسابق دول العالم الىٰ اطلاقها. فهي وسيلة خطيرة جداً؛ لأنّها ستقتحم علينا المنازل والمخادع، ولا يمكن منع الناس صغاراً وكباراً من مشاهدتها أو سماعها.

لقد حذر بعض الباحثين من البرامج التي ستهبط علينا من الفضاء، عن طريق تلك الأقمار منبهاً إلى أنّها تمثل تحدياً بالغ الخطر للثقافة الإسلامية، وأنّ علينا أن نعد من الآن لمواجهة هذا التحدي قبل فوات الأوان (٩).

ولا شك في أنّ هزيمة الثقافة الإسلامية أمام الثقافات الأجنبية التي ستبثها برامج الفضاء، يعني انهيار المقاومة العنيدة أمام الزحف التبشيري، فالمسلم الذي تحكمه قيم فكرية وسلوكية خاصة، تعبر عن ثقافته وهويته، قد يقاوم هذا الزحف وقد لا يظل في موقفه الصامد، فالمنهج التبشيري الذي يجمع بين الصورة والعبارة على نحو علمي مبرمج، سينال من قوة الصمود. فما بالكم بمن لا يتمتع من الأمة بوعي سليم بمفاهيم الإسلام ومكر المتربصين به، وهؤلاء هم الجمهور؟ إنّهم سيتأثرون أكثر من غيرهم ـ بلا مراء ـ بذلك المنهج، وتصبح الشخصية الإسلاميّة ـ بوجه عام ـ بعد حين لا ترى ضرورة في الاعتصام بما يدعو إليه دينها، ولا ترى بأساً في الأخذ بطرائق فكرية وسلوكية، لا تمت إلى أصول ثقافتها بوشيجة.

وبهذا يحقق التبشير أهم غاياته في محو فاعلية الإسلام بين المسلمين، أو الانتماء الجوهري إليه، أو كسر قبضته الحديدية.

وجملة القول: أنّ ثمة اختراقاً تبشيرياً للعالم الإسلامي كله، وأنّ العمل الدؤوب من أجل تعميق فهم المسلمين وإيمانهم بالكتاب المقدس جارٍ على قدم وساق، وأنّ النشاط التبشيري يهتم بالمسلمين أكثر من اهتمامه بالمسيحيين الذين لا يفقهون المسيحية ولا يلتزمون بتعاليمها، وأنّ هذا النشاط متعدد الجهات والوسائل، وينفق أموالاً طائلة، وأنّ المحرك الأوّل له هو الخوف من قوة الإسلام وليس الانتصار للانجيل، وأنّ من الخطإ الفادح أن نفرق بين الاستشراق والتبشير، فهما ـ كما أسلفت ـ وجهان لعملة واحدة؛ ولذا لا ينبغي الفصل بينهما، فالمبشر مستشرق والمستشرق مبشر، فهذا مستشرق معاصر يدرس الشريعة الإسلامية في جامعة «لندن» يقول في بحث له عن (العلاقة بين الإسلام واليهودية والمسيحية): «آن للعالم أن يرى ماذا سوف يحدث حين يعرف انجيل المسيح الحي بالصورة الملائمة لملايين المسلمين؟»(١٠).

أليس هذا المستشرق مبشراً انجيلياً وليس باحثاً علمياً؟ وإذا كان بعض المستشرقين يعربون عن آمالهم بصورة، لا مواربة فيها ـ كما فعل هذا المستشرق ـ فإنّ كل ما صدر منهم ـ حتى ما كان منه متعلقاً بقضايا، لا يظن أنّها تحقق هدفاً تبشيرياً كالدراسات الأدبية واللغوية ـ تحمل في

أطوائها سموم التبشير بنحو من الأنحاء.

إنّ التبشير والاستشراق معاً أداة مؤامرة باغية، لم يعرف العالم مثلها. إنّها مؤامرة، بدأ التخطيط لها منذ أكثر من عشرة قرون، وهي اليوم تتشعب، وتتغلغل في كل الأوساط العالمية.. إنّها مؤامرة،يتعذر حصر المشتركين فيها والمؤيدين لها.. مؤامرة بعدت أهدافها ومراميها، وكادت تشمل الإسلام والمسلمين جماعات وأفراداً وشعوباً وأقواماً؛فخذوا حذركم، فالخطر ماحق، والشر مستطير.. والله المستعان.

الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي

بدأ العالم الإسلامي يتنبه لخطر الفكر الاستشراقي منذ نحو قرن، ومن ثم صدرت عنه دراسات ومؤلفات عديدة، ولا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة، كما عقدت أكثر من ندوة تناولت الفكر الاستشراقي، من حيث دوافعه، وغاياته، ومجالاته، وآثاره العلمية.

وعكس كل ما صدر عن العالم الإسلامي، تفاوت آراء الباحثين في الحكم عليه، ويمكن أن تنقسم هذه الآراء ثلاثة أقسام:

أوّلاً: قسم أفرط في الثناء على الفكر الاستشراقي ونعته بالمنهجية، والدقة العلمية، والقيام بخدمات جليلة للفكر الإسلامي.

ثانياً: قسم رفض الفكر الاستشراقي؛ لأنّ كل ما صدر عنه لا يعرف الانصاف، ولا يتغيا معرفة الحقيقة في موضوعية، ومن ثم كان في جوهره

ومجمله فكراً عدوانياً باغياً.

ثالثاً: قسم اتسم بالوسطية وعدم الافراط في المدح أو القدح؛ فهو يذكر ما للاستشراق من حسنات وسيئات دون غمط لحق، أو تجاهل لخطل في الرأي أو فساد فيه.

أمّا الذين أفرطوا في الثناء على الفكر الاستشراقي، وذهبوا إلى أنّه أحسن أكثر مما أساء، وأفاد أكثر مما أضر، فإنّهم يكادون يجمعون على أنّ فضل المستشرقين يتمثل في أمرين:

١ـ نشر المخطوطات وفهرستها؛

٢ـ توجيه الفكر الإسلامي إلى الأخذ بالمنهج العلمي في البحث والدراسة(١١).

لقد قام المستشرقون بنشر الكثير من نفائس التراث الإسلامي نشراً علمياً، يسّر لنا الانتفاع بهذا التراث، وهذا فضل للاستشراق لا يمكن غض الطرف عنه، مهما تكن بواعث المستشرقين في ذلك.

وهذا النشر للمخطوطات الإسلامية ـ من جهة أُخرى ـ زاد من ثروتنا العلمية المطبوعة، وهذه الثروة كانت من أهم عوامل اليقظة الفكرية المعاصرة.

قال الأستاذ محمد كرد علي، في محاضرة(١٢) عن أثر المستعربين من علماء المشرقيات في نشر المخطوطات العربية على أيدي المستشرقين: «بأنّه

جهاد عظيم، وأنّهم ـ بما نشروا من كتبنا ـ أسدوا إلى لغتنا المحبوبة خدمات أياديهم البيضاء، وعلمونا ـ بما أحيوه ـ دروساً في تاريخ أمتنا ومدنية أجدادنا، مع أنّ أعمالهم هذه وصلتنا بالعرض؛ إذ لم يكن علماء المشرقيات ومجامعهم يقصدون خدمتنا، بل خدمة العلم أو الأفكار التي يريدون بثها؛ ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع، قد يرون غير رأينا فيه، ولكن، مهما كانت النيات، فقد استفادت العرب والعربية من هذه المهمة التي انبعثت من ديار الغرب؛ ولذلك تقضي علينا أخلاقنا أن نعرف الفضل لصاحبه».

ثم يقول ـ بعد أن سرد طائفة من أسماء الكتب التي نشرها الاستشراق في أوربا وأمريكا وروسيا ـ «وكل ما طبعه أولئك الأعلام ينم عن صبر طبيعي فيهم، ودأب غريب، وأمانة يصفق لها، وتحر للحق، وتحرج من التلفيق، حتى غدت مطبوعاتهم ـ إلا ما ندر منها ـ مثال النظر البليغ والطبع الجميل، وأكبر معوان على المراجعة، والمطالعة، والانتفاع بالكتاب حق الانتفاع».

وأثنى على المستشرقين لما يبذلونه من جهد فائق في التحقيق والتوثيق والتمحيص، ومن ثم يأتي عملهم سليماً من الشوائب في الجملة، وإذا كان لبعضهم أخطاء في هذا المجال، فإننا ـ على عربيتنا ـ نرتكب في تحقيق كتبنا أغلاطاً فظيعة.

والاستشراق ـ إلى جانب قيامه بنشر المئات من المؤلفات الإسلامية ـ قدم لنا دراسات علمية عن تراثنا، تناولت تاريخه، وتطوره، وتأثيره، وتأثره[١٣].

جاء في تمهيد الجزء الأوّل من كتاب المنتقىٰ من دراسات المستشرقين[١٤]: إن المستشرقين طرقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا، وعالجوا كل أمر ذي شأن في ديننا وحضارتنا متبعين في دراستهم وأبحاثهم طرق البحث المنهجي المنظم، ولقد أتيح لهم أن يكونوا أحياناً كثيرة أكثر إحاطة بالمصادر، وأبصر بمواضع النقد، وأشد جرأة على ارتياد آفاقٍ، صَرَفَنا عن ارتيادها الدينُ أو التقاليدُ.

ولم يقتصر جهد الاستشراق على النشر والدراسة؛ وإنّما تجاوز هذا إلى وضع الفهارس المختلفة التي كشفت عن آلاف المخطوطات التي توزعتها مكتبات العالم، فعرفنا عن تراثنا ما كنا نجهل، وسعينا لجمع ما يمكن جمعه منه عن طريق التصوير ونحوه. وكذلك وضعت الفهارس المتنوعة لموضوعات وألفاظ القرآن الكريم، وأمهات كتب الحديث، وبعض المصادر من كتب اللغة، والتاريخ، والأدب؛ مما أتاح لنا الوقوف ـ في يسر ـ على أحكام الكتاب العزيز، ومعرفة الحديث، ومن خرّجه من علماء السنّة، مع استقراء النصوص التي تتعلق بموضوع واحد؛ فيتوافر لدرسه ـ بذلك ـ عنصر الدقة والشمول، ومن ثم ينتهي الباحث إلى نتائج علمية، لا يعتريها القصور أو الاضطراب.

وأمّا توجيه الفكر الإسلامي إلى الأخذ بالمنهج العلمي في البحث، فإنّ نشاط الاستشراق اتسم بالدأب، والصبر والتنقيب، والتعويل على المصادر الأصيلة؛ ولهذا غلب الطابع الأكاديمي على دراسات المستشرقين، ومن ثم سبقونا في مجال خدمة تراثنا، ووصلوا إلى ما لم نصل إليه من الآراء والنتائج العلمية حول هذا التراث؛ وما ذالك إلا لاعتماد الاستشراق على أساليب البحث العلمي المنظم.

ويذهب الدكتور طه حسين ـ رحمه‌الله ـ في مقدمة كتابه في «الأدب الجاهلي» إلى أنَّ أبحاث المستشرقين أبحاث علمية قيمة، وانَّ كل دارس لتراث الشرق، لا يمكنه أن يقدم عملاً علمياً مفيداً، ما لم يقف على النتائج العلمية لأبحاث المستشرقين، فهم أهل العلم، ولا يلتمس العلم إلا عندهم، فقال: «وكيف نتصور أُستاذاً للأدب العربي، لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما أنتهى اليه الفرنج (المستشرقون) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق، وأدبه، ولغاته المختلفة، وانما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم؛ حتى يتاح لنا ـ نحن ـ أن ننهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا، ونسترد ما غَلَبَنا عليه هؤلاء الناس من علومنا، وآدابنا، وتاريخنا»(١٥).

والعميد ـ في هذا النص ـ ينعت المستشرقين بأنهم علماء، وأنهم ـ في مجال دراسة علومنا ـ كانوا أفضل منا، وأن السبيل لغلبة هؤلاء الأعاجم هو

أن نسير سيرتهم، ونقتفي أثرهم.

ويرى الدكتور زكي مبارك ـ رحمه الله ـ أن المستشرقين[١٦] طائفة من العلماء الجادين، يجب الاتصال بهم، وأنهم وإن كانوا طلائع المستعمرين فإن الاستعمار ليس في ذاته جريمة بل شريعة حيوانية، والشرائع الحيوانية أبق على الزمان، وليس يكفي في دفع الاستعمار أن تبغض أهله وأن تقاطعهم، ثم ان المستشرقين الذين يعملون مع الاستعمار يتحولون مع الزمان الى علماء، وتضعف فيهم النزعة الاستعمارية، وتغلب عليهم النزعة العلمية.

ويعترف الدكتور زكي بأنّ للمستشرقين أخطاءَهم في فهم التراث، وبعض هذه الأخطاء مضحكة، كما أنّ لهم آراءهم الفاسدة في الإسلام وتعاليمه، وهي آراء تخدم بعض الهيئات الدينية، ولكنهم ـ مع هذا ـ خدموا الإسلام بخصومتهم له أجل الخدمات، فقد عمدوا إلى القرآن والحديث فطبعوا كل ما يتصل بهما من جيد المؤلفات، وفهرسوها، وبوبوها، ورتبوها ترتيباً، تعجز عنه مشيخة الأزهر الشريف.

والمستشرقون ـ إلى هذا ـ سبقونا إلى الدراسات الأدبية والإسلامية بنحو ثلاثة قرون، والباحث الجاد في مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم التي تطالعه من كل جانب.

ثم يقول الدكتور مبارك: «وليس لديّ ما يمنع من الاعتراف بأنّ أثر

المستشرقين أبق في ذهني وأوضح، وأنّ فضلهم عليّ أظهر وأرجح»، ويستطرد،فينصح الأمة بمتابعة خطوات المستشرقين في غير زيغ ولا ضلال.

ويختم رأيه في الاستشراق بقوله: «وبعد، فأنا لا أهوّن من أغلاط المستشرقين ولا أدعو إلى متابعتهم في غير بصيرة ولا روية، ولكني أجزم بأنّ أعمالهم أدخلت كثيراً من عناصر الحيوية في الدراسات اللغوية والإسلامية، وليس في الدنيا شر خالص ولا خير خالص، وإنّما النفع في أعمال هؤلاء الباحثين أقوى وأغلب»(١٧).

فالدكتور زكي مبارك ـ مع اعترافه بأخطاء الاستشراق، وأنّه طليعة الاحتلال، وله من الإسلام مواقف سيئة ـ يكاد يحصر نفعه وفضله في نشر الكثير من التراث الإسلامي الذي انتفعنا به ـ بلا مراء ـ، وكذلك في المنهج العلمي في البحث، وأننا أخذنا بهذا المنهج عنه، وحاولنا به أن نجدد من دراستنا، ونطور حياتنا العلمية، وأنّ هذا الجانب يطغى على الجوانب السيئة في أعمال الاستشراق، وأنّ علينا أن نتابعه فيه فهو أقوى وأغلب من سواه.

وإذا كان الاستشراق قد أراد ـ بما أثاره من آراء فاسدة ـ تشويهَ الإسلام وتراثه الحضاري، فإنّ الذين يمدحون الاستشراق ويذهبون إلى أنّ نفعه أكثر من ضرره، وخيره أكثر من شره، يقولون بأنّ تلك الآراء الفاسدة كان لها دور ايجابي في الفكر الإسلامي؛ لأنّها دفعت كثيراً من علماء المسلمين إلى الذب عن دينهم، وبيان بطلان ما يتردد في دوائر المستشرقين من أفكار

حول الإسلام والمؤمنين به، وقد نجم عن هذا يقظة فكرية إسلامية، واجهت الشبهات والافتراءات في قوة. وهذا يعني أنّ الجانب السلبي في الفكر الاستشراقي أثمر ايجابية في الفكر الإسلامي المعاصر، فقد هب العلماء والمفكرون يذودون عن قيمهم، ويدعون إلى الاعتصام بها، ويبينون خصائصها، وما تمتاز به عن سواها، وأنّ الذين يهاجمونها و يعتدون عليها إمّا جهلاء أو متعصبون حاقدون لا يريدون لنور الحق أن يبدد ظلمات الباطل والفساد. فالاستشراق ـ من ثم ـ أفاد الفكر الإسلامي من حيث لا يحتسب.

هذا ـ بوجه عام وفي إيجاز وإجمال ـ ما يراه الذين يذهبون إلى أنّ الاستشراق أفاد وأحسن، وأنّ فضله على تراثنا ونهضتنا أمر لا ينبغي المراء فيه، وأنّه حتى في أخطائه كان مصدر خير للفكر الإسلامي.

ولكن الذين يرون أنّ الاستشراق لم يحسن، بل أساء إلينا أبلغ إساءة وأنّ المستشرقين على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم يعملون وفق تخطيط مدروس، يستهدف اضعاف القوة الإسلامية في شتى المجالات.. هؤلاء الذين يرفضون الفكر الاستشراقي، ويناصبونه الحرب، ينطلقون في موقفهم من هذا الفكر، من عوامل نشأته، وتطور تاريخه، وما صدر عنه من آراء ودراسات، وما قام به بعض المستشرقين من أعمال التجسس لصالح أعداء المسلمين. ويعترفون بأنّ موضوعية فئة قليلة من المستشرقين لا تعني أنّ

القاعدة الأساس للنشاط الاستشراقي (وهي العمل على تقويض الوجود الإسلامي) غير راسخة الدعائم، بل انّها المحرك الأوّل لذلك النشاط منذ بدأ وحتى الآن.

هؤلاء الذين لا يرون للاستشراق نفعاً ينقضون دعوى الذين أفرطوا في الثناء عليه، ويسوقون الشواهد الكثيرة التي تؤكد أنّ الفكر الاستشراقي أساء إلينا وما زال يسيء. وسأذكر أوّلاً نقضهم لآراء الذين يحكمون على الاستشراق بالجدة والمنهجية العلمية والفائدة، ثم أقفي عليه بأدلتهم التي تدمغه بالعدوانية.

أمّا ما يتعلّق بنشر التراث وفهرسته والعناية به، فإنّ ما يعزىٰ إلى الاستشراق من جهد في هذا المجال أمر مبالغ فيه، من حيث الكم، فلا يكاد يتجاوز ما قام المستشرقون بطبعه من تراثنا إلا نحو عشرة بالمئة[١٨] من جملة مانشر من هذاالتراث. وليس المهم مقدار ما نشره الاستشراق من تراثنا، أقليلاً كان أم كثيراً؟ وهل كان ـ أيضاً ـ في نشره دقيقاً أميناً يعي خصائص العربية، ويفقه سر بلاغتها؟؛ وإنّما المهم أن نتعرف على سبب الاهتمام بهذا التراث، ونقله خارج ديارنا بوسائل مختلفة، منها السرقة، ففي الوقوف على هذا السبب بيان للغاية من هذا النشر، أعلمية كانت، أم غير علمية؟

لقد سئل المفكر الجزائري المعاصر مالك بن نبي (رحمه الله) عن سبب نقل تراثنا إلى الغرب، فأجاب بأنّ نقل تراث المسلمين إلى الغرب في الماضي

كان لتعديل ثقافي، ثم استغله في العصر الحديث لتعديل سياسي[١٩]، وهو يقصد بهذا: انّ الغرب كان يعيش قبل اتصاله بالحضارة الإسلامية على فتات علوم الاغريق، وأنّ علوم المسلمين هي التي أخرجت الغرب من دياجير العصور الوسطى، ويعترف بهذا الفضل بعض الأوربيين ويرون أنّ أوربا كان من المستحيل أن يكون لها شأن يذكر، لولا وجود المعارف العربية[٢٠].

فالتراث الإسلامي ـ وينسحب مفهومه على كل ماأخذه الغرب عن المسلمين، سواء من طريق الدرس، أو الترجمة، أو نقل المخطوطات والمؤلفات ـ هو الذي غيّر مسيرة الحضارة الأوربية، فقد وضعها في أول طريق النهضة، وزودها بأدوات النجاح في الوصول إلى المنجزات الحضارية؛ وبذلك يمكن القول ـ دون اسراف أو مبالغة ـ: من القرن السادس الميلادي إلى القرن العشرين لم ينشأ في العالم أثر جديد، لا يرجع إلى الحضارة الإسلامية، بسبب قريب أو بعيد، فالحضارة الأوربية المعاصرة ترجع إلى عصر النهضة، وهذا العصر يرجع إلى ثقافة المسلمين في الأندلس وجزر البحر المتوسط، وإلى ما عاد به الصليبيون من الديار الإسلامية بعد أن عاثوا فيها نحو مئتي عام، فلا غرو ان كان للفكر الإسلامي دور الريادة في توجيه الفكر العالمي وجهةً صالحةً، كان لها أعظم النتائج في تاريخ العالم قديمه وحديثه، وإحدى هذه النتائج التي لا شك فيها كشف القارة الأمريكية[٢١].

هذه الحقيقة (حقيقة أثر التراث الإسلامي في الفكر العالمي) يحاول

كثير من المستشرقين أو جمهورهم التشكيك فيها، فهم يزعمون بأنّ المسلمين ليس لهم فضل على العالم وأنّ حضارتهم عالة على الحضارات القديمة وأنّهم مجرد نقلة لتراث غيرهم، فليس لهم ابتكار ولا تطوير (٢٢).

ومن المستشرقين من آثر الصمت إزاء ما قدمه الفكر الإسلامي من أياد بيضاء للحضارة الإنسانية. وكان همهم ـ وبخاصة في القرن التاسع عشر الذي يعد أعتى عصور الاستشراق ـ تجاهل فضل المسلمين الحضاري، وإلقاء ظلال النسيان على دورهم الإبداعي في صنع التقدم والرقي (٢٣).

وهذا الموقف من قبل الاستشراق (موقف الانكار والجحود والتجاهل) هو الذي عناه المفكر الجزائري بالتعديل السياسي؛ أي أنّ التراث الإسلامي بعد أن أدى رسالته في تطوير أوربا، ونقلها من حياة الهمجية والبربرية إلى حياة التقدم والحضارة، أصبح في أيدي غير المسلمين وسيلة لمنع تقدم المسلمين؛ لأنّهم يخافون من هذا التقدم، ولا يريدون له يوماً أن يكون على نحو، يهدد مصالحَهم، وبسطَ نفوذهم، وحمايةَ أصدقائهم من اليهود وأضرابِهم.

فإذا كان المستشرقون يعكفون على تراثنا لتحقيقه ونشره، أفيبغون من وراء ذلك أن ينتفعوا بما ينشرون في تنيمة ثقافتهم القومية، وهم على بينة من أنّ المثقفين في بلادهم لا يقرأون هذا التراث بعد نشره، لعدم معرفتهم بلغته، أم يريدون أن يقدموا لنا تراثاً منشوراً مفهرساً محققاً؛ حتى نستعين به

في نهضتنا وتقدمنا؟

إنّهم لم ينفقوا الأموال على التحقيق والنشر ليسهموا بهذا في تنمية ثقافتهم القومية، كما أنّهم لم يفعلوا هذا مساعدة لنا في المحافظة على تراثنا والانتفاع به في تطوير حياتنا. فهذا أمر لا يعنيهم؛ ولذلك كان نشر تراثنا لغاية أبعد من هذا وذاك، كان وسيلة لدراسة نفسية الشعوب الإسلامية؛ حتى يكون تخطيط الفكر الاستشراقي في موقفه من هذه الشعوب قائماً على أسس علمية، تحقق ما تصبو إليه آمال المستشرقين ودولهم في الإحاطة بوسائل الاخضاع والسيطرة.

إنّ الهدف الأوّل من نشر التراث هو معرفة جوانب القوة للقضاء عليها وجوانب الضعف لتعميقها[٢٤]؛ ليظل النفوذ الغربي طاغياً علينا، ولتمتلئ طرقات العودة إلى الإسلام الصحيح بالأشواك الدامية التي تحول دون اعتصام المسلمين الجاد بدينهم. فهم بغير هذا الدين لن يقدروا على أن يقفوا في وجه احتلال مادي أو معنوي، وهذا غاية الغايات للفكر الاستشراقي والسياسة الاستعمارية. ومن هنا، عرّف بعض المعاصرين الاستشراق بأنّه استخدام العلم في خدمة السياسة[٢٥].

ومن أوضح الدلائل على أنّ الاستشراق لا يريد من وراء نشر التراث الإسلامي غاية علمية، وإنّما يسعى لمهمة تبشيرية أنّ معظم ما اصطفاه من هذا التراث يعكس الاضطراب الفكري والسياسي بين

المسلمين؛ ولذلك يهتم بكتب الفرق والصراعات السياسية والمذهبية؛ ليقف على الظروف التي واكبت نشأتها، والعوامل التي ساعدت على نموها وتفاقم مشكلاتها؛ حتى يتهيّأ لها ما يجعلها حية متأججة الأوار تشغل الأمة، وتستهلك، قواها وتستحوذ على فكر علمائها، ولب قادتها، فتضرب بينهم الفرقة، ويسود حياتهم الخلاف والشقاق(٢٦).

فالاستشراق في مجال النشر اهتم بالجوانب السلبية في تراثنا أكثر من اهتمامه بالجوانب الايجابية، كما أنّه في منهج التحقيق لم يكن علمياً، ففضلاً عن أخطاء الفهم، كانت هناك التحريفات والتعليقات التي تعبر عن التعصب والاتهام للإسلام ولغته، كما تعبر عن خدمة الأهواء السياسية، والأطماع الاستعمارية، والتوجهات التبشيرية.

ويتصل بمجال التحقيق وضعُ الفهارس، وبخاصة ما جاء منها عن القرآن الكريم وأُمهات كتب السنّة. والاستشراق لم يقم بوضع هذه الفهارس، إلا ليهيّئ لنفسه وسائل جمع المادة العلمية التي يتظاهر بها دارساً جاداً موضوعياً، يستقرئ المسائل في دقة وشمول، كما أنّ هذا الجهد في وضع الفهارس ـ وهو عمل في ظاهره يحمد للاستشراق ويدل على مبلغ ما بذل من وقت ومال ـ يعطي انطباعاً لدى جمهور المثقفين المسلمين بأنّ المستشرقين علماء مخلصون، وأنّهم فعلوا ما لم نفعله، وخدموا تراثنا بما لم نستطع أن نخدمه به. وهكذا يكون ذلك الجهد كجواز مرور لكل ما يصدر

عن المستشرقين من آراء فتلق القبول والاستحسان، بل والتفضيل على سواها، والنظرة إلى من يحمل عليها نظرة نفور وازدراء.

وجملة القول، انّ الاستشراق في ميدان التحقيق والفهرسة والنشر، كان يعمل وفق سياسته التي درج عليها منذ نشأته، ولم يقدم لنا من تراثنا ما يساعد على النهوض من كبوة التخلف، وإنّما قدم ما يُمكِّن بيننا أسباب التمزق، والضعف والتبعية، ويحقق له مآربه في الهيمنة الفكرية والسياسية.

ويحتج بعض الذين يمدحون ما قام به الاستشراق من تحقيق ونشر بما قالته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في محاضرة لها عن تراثنا الثقافي بين أيدي المستشرقين، حيث قالت: «إننا ندين لهم؛ أي للمستشرقين بجمع ذلك التراث وصونه من الضياع، وتسألون: وماذا لو تركوا تراثنا لنا؟ أما كنا أهلاً لجمعه وصونه؟ فأجيبكم بملء يقيني: كلا، كنا في غفلة عنه، لا نكاد نحس وجوده، أو نعرف قيمته، أو نقدر حاجتنا إليه. خدام دور العبادة يبعيون نفائسه بالكوم لتجار الحلوى والبقول. ولم يقف جهد المستشرقين في الجميع على مجرد الاقتناء، بل فهرسوا ما جمعوا من تراثنا فهرسة علمية، ومن ثم انتقلوا إلى نشر ذلك التراث نشراً، يعتمد على أدق منهج للتوثيق والتحقيق، وصحونا من نومنا، فإذا ألوف الذخائر العربية بين أيدينا محررة، موثقة، نلوذ بها في دراستنا العالية، ونعد الرجوع إليها في أبحاثنا المتخصصة مدعاةً للفخر والمباهاة. وبلغوا في دراساتهم للشرق

والعربية والإسلام حداً مذهلاً من العمق والتخصص. فهل قصدوا بهذه العملية الضخمة المنظمة خدمة العرب والشرق والإسلام؟ لقد استهدف الاستشراق في نشأته الأولى خدمة الكنيسة والاستعمار، وما نشهد بين الفينة والفينة من التواء أساليبهم في توجيه العبارات، واضطراب مناهجهم في سوق الأخبار واعتسافهم في تأويلها؛ بغية استخلاص نتائج سامة، تمس ديننا وتاريخنا، فما يجوز منا بعد اليوم أن نتخلى عن تراث غال ـ نحن أهله وأصحابه ـ لسوانا من الأجانب الغرباء، الذين كثيراً ما تعوزهم النزاهة والإخلاص بقدر ما يعوزهم ذوق العربية وادراك أسرارها في التعبير والأداء»(٢٧).

أفي صالح الذين يدافعون عن الاستشراق، هذه الكلمة، أم أنّها على العكس تقضي عليه بسوء النية والضعف في اللغة العربية؟

لقد قررت الدكتورة عائشة أوّلاً حقيقة تاريخية وهي أنّ المستشرقين نقلوا إلى بلادهم كثيراً من تراثنا وفهرسوه، ثم نشروا بعضه. وألمحت إلى أنّ ما نشر ألوف من الذخائر العربية، وفي هذا إسراف ومبالغة من حيث الكم، وتعميم من حيث أنّ كل ما نشر ذخائر، فكثير مما نشر لا يعد من مفاخر الفكر الإسلامي ولا ذخائره كما سبقت الإشارة إلى هذا.

والدكتورة ترى أنّ المستشرقين ـ في تحقيقهم ـ يعتمدون على أدق التوثيق، بيد أنّها ـ بعد هذا ـ تتساءل: لماذا هذا الجهد الضخم المنظم في نشر

تراثنا؟ وتجيب بأنّ الاستشراق لم يفعل ذلك خدمة للعرب والإسلام، بل إنّه يخدم مصالح أُخرى: مصالح العقيدة التي يدين بها، والأمة التي ينتمي إليها؛ وهو ـ من أجل هذا ـ يفسر النصوص في تعسف، ويوجه العبارات توجيهاً ملتوياً، يلتقي مع مصالحه، وينتهي إلى نتائج خطيرة وأحكام جائرة، فهي ـ من ثم ـ سموم تفتك بتاريخنا وتعاليم ديننا.

ثم تهيب بعلماء الإسلام أن يحموا تراثهم من الغرباء الذين تعوزهم النزاهة، والاخلاص، ودقة فهم اللغة. وفي هذا، ما يتعارض مع ما ذهبت إليه من أنّ المستشرقين يعتمدون على أدق مناهج التحقيق، فالمنهج الذي لا يعرف النزاهة ولا الإخلاص لا يكون منهجاً علمياً؛ وإنّما يكون أسلوباً من أساليب التضليل والإفساد.

فهذه الكلمة حجة على الاستشراق وليست حجة له، ومن يستشهدون(٢٨) بها في مجال التنويه بدور المستشرقين في خدمة تراثنا، يفهمونها على غير الوجه الصحيح.

وأمّا توجيه الفكر الإسلامي نحو الأخذ بالأسلوب العلمي في البحث والدراسة، فإنّ في هذا ما يومئ إلى أنّ ذلك الفكر لم يعرف هذا المنهج، وأنّه كان في نشاطه العلمي يسعى على غير هدى، حتى جاء الاستشراق، فأرشده إلى اتباع المنهج القويم؛ فهو بذلك قد أسدى إليه يداً جليلة، وأنقذه مما كان قد تردى فيه من تقليد واجترار. وهذا غير مسلم به، فالفكر

الإسلامي له منهجه الفريد في البحث والدرس، والتراث العلمي للمسلمين في شتى المجالات خير شاهد على هذا، وما كانت أوربا قبل عصر نهضتنا وفي إبانه لترسل رسلها لنقل علومنا وترجمتها إلا لحاجتها لهذه العلوم، وإيمانها بأنّها ذات منهج علمي ومضمون حضاري، لم تعرفه البشرية من قبل، وأنّه لا سبيل أمام أوربا لكي تخرج من ظلمات عصورها الوسطى إلا بالتتلمذ على فكر المسلمين وعلومهم.

وإذا كان المنهج الإسلامي قد حل به الوهن في بعض مراحل التاريخ، فإنّه ـ مع هذا ـ ظل حياً وفاعلاً، وبخاصة على أيدي طائفة من المجددين والمجتهدين.. أولئك الذين حاولوا أن يعيدوا للأمة تاريخها المشرق بالفكر العلمي والتطوير الحضاري.

مراحل الفكر الاستشراقي وعلاقته بالمسلمين:

انّ الفكر الاستشراقي في علاقته بالمسلمين مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي التي كان فيها هذا الفكر موجهاً إلى الأوربيين خاصة، وبدأت هذه المرحلة منذ بداية الاستشراق وإلى عصر الاستعمار المسلح. لقد دأب الفكر الاستشراقي في هذه المرحلة الطويلة على تقديم الإسلام في صورة منفِّرة تثير الضيق به، والتوجس منه، والرغبة في القضاء عليه، وذلك خوفاً من أن ينتشر هذا الدين بين الأوربيين. وهذا يعني أنّ المسلمين لم يكن لهم دراية بالفكر الاستشراقي على نحو، يؤثر في أفكارهم

وآرائهم وأسلوب بحثهم ودرسهم. وأمّا ما كان من جدل أحياناً بين بعض الرهبان وعلماء الأمة حول العقائد النصرانية والإسلامية، فقد كان في نطاق محدود، وكان لهؤلاء العلماء موقفهم العلمي الموضوعي في إقامة البراهين الساطعة على فساد دعاوى الرهبان والقساوسة، وبيان أنّ حججهم التي يتذرعون بها في محاولات الانتصار لعقائدهم داحضة و باطلة(٢٩).

إنّ المسلمين ـ بوجه عام ـ في تلك المرحلة لم يكن لهم اهتمام بما يجري من نشاط فكري بين المستشرقين والمبشرين، وما كانوا يعرفون عن مؤلفات هؤلاء وأولئك شيئاً ذا بال، وكل ما يعرفونه عنهم أنّ بعضهم كان يرحل إلى بلاد الإسلام ليدرس علوم المسلمين، وليحمل معه إلى وطنه ما يستطيع حمله من التراث الإسلامي؛ ولهذا كانوا في نظر جمهور المسلمين طلاب علم، ومن ثم عُوملوا أكرم معاملة.

فلما غزت أوربا العالم الإسلامي، وبسطت نفوذها عليه ـ كله تقريباً ـ وفرضت قوانينها ونظمها في التربية، والقضاء، والاجتماع، لم يعد الفكر الاستشراقي موجهاً إلى الأوربيين وحدهم؛ وإنّما أصبح موجهاً كذلك إلى المسلمين، بل إنّ هذا الفكر هو الذي رسم للاحتلال السياسة التعليمية، والثقافية، والاجتماعية، وأشرف عليها، وما كانت هذه السياسة تتغيا النهوض بالعالم الإسلامي حتى يستعيد مكانته وأمجاده؛ وإنّما كانت تتغيا هدفاً آخر وهو أن يكون هذا العالم تابعاً مقلداً للعالم الغربي يدور في فلكه،

ويتطور في نطاق مصالحه.

المرحلة الثانية: في مستهل هذه المرحلة نشب الصراع الفكري بين طائفة من المسلمين وبعض المستشرقين، وظهرت كتابات منذ نحو قرن، تحذر مما يخططه الاحتلال بوساطة الاستشراق والتبشير، وإن جاءت في صورة ردود على هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا النيل من الإسلام وثقافته وصلاحيته للتطبيق الدائم. ولكن هذا الصراع ـ وإن نبه إلى الخطر ـ لم يحل دون بلوغ الغاية التي خطط لها الفكر الاستشراقي، وتجلى ذلك في ميادين التربية والثقافة، فقد تخرجت أجيال في ظل نظام تربوي، له فلسفته المادية التي لا تلتقي مع فلسفة التربية الإسلامية، ونجم عن هذا ظهور ما يسمى بالثنائية الفكرية، وما تمخض عنها من تمزق ثقافي، أتاح الفرصة لكل الاتجاهات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية الوافدة و الدخيلة أن تجد لها أنصاراً، يؤمنون بها، ويدافعون عنها؛ مما ضاعف من حدة الصراع بين التيارات المتناقضة في المجتمع الإسلامي، وتبديد طاقاته فيما لا يعود عليه إلا بمزيد من الضعف، والتخلف، والتبعية.

وكان ابتعاث الطلاب المسلمين إلى أوربا ـ للدراسة وبخاصة العليا، وفي تخصصات إسلامية خالصة ـ يتيح للاستشراق توجيه هؤلاء الطلاب؛ للقيام بعد عودتهم إلى أوطانهم بتبني الفكر الاستشراقي واذاعته والتمكين له. حكى الدكتور عمر فروخ ـ رحمه الله ـ حينما كان يدرس في باريس قال:

«بعد أن حضرت في باريس سنة ١٩٦٣م على «ماسينيون» و «مارسيه» و «ليفي بروفنسال» وغيرهم مدة وأردت العودة إلى ألمانيا لمتابعة دراستي الأساس ودّعت الأساتذة، فأراد «مارسيه» أن يحادثني قبل أن أغادر بناء «السوربون»، قال لي: «يا عمر، أنت تدرس في ألمانيا فتدفع أقساطاً مدرسية، وتنفق على معيشتك فتعال إلينا ستتعلم مجاناً، وسنعطيك منحة، ثم إذا رجعت إلى بيروت وجدت منصباً ينتظرك».

ويعقب الدكتور فروخ على هذا بقوله: «ليس من الضروري أن أذكر الآن ردي على تلك الإهانة، ولكني أريد أن أقول: أنا أعرف أشخاصاً درسوا في فرنسا وفي غير فرنسا، ثم لما عادوا إلى بيروت وإلى غير بيروت وجدوا مناصب تنتظرهم، قد فعلوا ما عجز المستشرقون والمبشرون عن تنفيذه، وزادوا في الشر على ما كان المستشرقون والمبشرون يريدونه»(٣٠).

ولا جدال في أنّ تلاميذ المستشرقين ـ سواء منهم من درس عليهم أو قرأ لهم، ولكن لم تكن لديهم حصانة فكرية إسلامية، تحميهم من الانبهار بفكر الاستشراق، فرسم خطاه على نحو مَرَضيّ، يعكس عقدة النقص والاحساس باستعلاء الغرب في كل شيء، حتى فيما يخص التراث الإسلامي ـ هؤلاء التلاميذ ـ وما أكثرهم في ميادين التربية والإعلام والثقافة ـ يقومون بأكثر مما يقوم به الاستشراق، فهم يندفعون في حماس لإذاعة أفكار المستشرقين وآرائهم في ديننا، ولغتنا، وتاريخنا، ولأنّهم من بني جلدتنا؛ لا

يلقون مقاومة ممن ينشرون بينهم هذه الأفكار؛ لضعفهم العلمي من جهة، ولأنّهم يثقون في هؤلاء التلاميذ من جهة أُخرى. ولا يخطر ببال أحدهم أنّهم يرددون أفكاراً، تحمل السموم وتفتك بالقيم. وربّما كان بعض من ينشر فكر الاستشراق حسن النية، ويظن أنّ سبيل التخلص من التخلف هو أن نسلك طريق هؤلاء الأقوياء؛ حتى نصير لهم أنداداً ونستردّ منهم ما سلبوه في غفلة من ضعفنا وركود ريحنا.

فالفكر الاستشراقي ـ إذن ـ لم يوجه الفكر الإسلامي للمنهج في الدراسة؛ لأنّ ذلك الفكر لم يحترم هذا المنهج إلا بقدر ما يكفل له بلوغ مآربه، ثم إنّه ـ إلى هذا ـ شغل الفكر الإسلامي بما لا يرتد عليه بجدوى، لقد دفع به إلى متاهات نظرية، وبلبلة فكرية، وصراعات عقلية امتصت كل الجهود غالباً، وحالت دون توجهها الوجهة النافعة، ولا فرق في هذا بين فكر استشراقي أشاد بأمجاد المسلمين واسهامهم الرائع في التقدم الإنساني، وفكر استنقص تاريخنا الحضاري ونَعَتَنا بالسلبية، والغيبية، واجترار ما أبدعه الآخرون. يقول مالك بن نبي: «وهكذا يبقى الضمير الإسلامي في دوامة صراعه الباطن، يسكنه ـ أحياناً ـ ما يكتب المادحون، ويثيره ـ أحياناً ـ أُخرى ما ينتجه المفندون. وقد استمر هذا الصراع منذ قرن في حلقة مغلقة مستهلكاً أجدى الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي من دون جدوى.. من دون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الإسلامية»(٣١).

ثم يقول: «وبالتالي يتبين لنا أنّ الانتاج الاستشراقي ـ بكلا نوعيه ـ كان شراً على المجتمع الإسلامي؛ لأنّه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان، سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أم في صورة التفنيد والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار.. مجتمع ما بعد الموحدين. بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعاً ولكن دون هوادة لا نراعي في كل ذلك سوى الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ، دون أن نسلم لغيرنا حق الإصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب»(٣٢).

وبعد تفنيد دعاوى الذين يمجّدون الفكر الاستشراقي، ويحكمون على منهجه ـ في دراسة ديننا وحضارتنا ـ بالعلمية، ويعتبرون ما يصدر عنه القولَ الفصلَ أو النهايةَ في معالجة الموضوع (٣٣)، ويعتقدون انّ جهده في نشر التراث الإسلامي جهد فائق كان له أكبر الأثر في نهضتنا المعاصرة.. بعد هذا، أشير إلى أنّ الذين يرفضون هذا الفكر ـ كما أومأت سابقاً ـ يربطون بين كل نشاطه، وعوامل نشأته، وتاريخه، وبين علاقته الحميمة برجال الكنيسة، ورجال السياسة، وقادة الاستعمار، ويؤكدون أنّ كل جيل من المستشرقين يسير على درب الجيل السابق عليه، ويتخذ من مؤلفاتِهِ عمدتَهُ في البحث، ومصادره الأولى في الدراسة. فلا غرو أن ظلت الروح

التي كانت من وراء الاهتمام بدارسة الإسلام، والتعرف على مناط قوته من قبل الغربيين منذ عَبَرَ المسلمون مضيق جبل طارق وفتحوا أجزاء من أوربا.. لا غرو أن ظلت هذه الروح مهيمنة على الفكر الاستشراقي حتى العصر الحاضر. وكان الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي من أهم العوامل التي دفعت بالمستشرقين والمبشرين لمضاعفة جهدهم في عزل المجتمع الإسلامي عن دينه فكراً، وسلوكاً، وتطبيقاً. فكانت تلك الدراسات الاستشراقية الجمة التي لم تَدَع جانباً من جوانب ثقافتنا إلا أدلت بدلوها فيه، والتي أُريد بها أن تكون البديل الثقافي للأمّة تعتمدها في كل قضاياها العقائديّة والتاريخية والفكرية؛ حتى تنقطع روابط الصلة الروحية، والنفسية، والعقلية بتراثنا، وننساه رويداً رويداً، وينتهي الحال إلى أن نصير دون ذاتية وهوية، لها قسماتها الفريدة وقيمها الحضارية الخالدة..

ولا يسمح المجال بتفصيل القول في هذا، وأجتزئ بذكر طرف من آراء الذين لا يرون للفكر الاستشراقي أية حسنة، ويعتبرونه بلاءً على الأمة. يقول محمد أسد ـ وهو نمساوي، هداه الله إلى الإسلام، وخبر ما كتبه المستشرقون من كثب: «تواجهنا صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية في جميع ما كتب مستشرقو أوربا، وليس ذلك قاصراً على بلد دون آخر، إنك تجده في انجلترا، وألمانيا، في روسيا، وفرنسا، وفي ايطاليا، وهولندا، وبكلمة واحدة، في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام. ويظهر

أنّهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث، حينما تعرض لهم فرصة ـ حقيقية أو خيالية ـ ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد»(٣٤).

ويذهب الدكتور حسين الهراوي إلى أنّ الكتّاب الأوربيين يصوّرون الإسلام بصورة بشعة غريبة، لا تكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ! وأرجع هذه الصورة البشعة في كتابات الأوربيين إلى المصادر التي اعتمدوا عليها في ابداء آرائهم، وهي كلها مصادر استشراقية. فالاستشراق لا عمل له إلا مقاومة الروح الإسلامية، واضعافها أو اماتتها بوسائل مختلفة. وذكر أنّه حين زار أوربا وجرى بينه وبين الناس حديث عن الإسلام، أدرك أنّ الأوربيين يُربَّون على كراهية الإسلام واحتقار الشعوب الإسلامية؛ حتى لا يعطفوا عليها ولا يختلطوا بها، وأنّ الفكر الاستشراقي هو منهج هذه التربية الفاسدة.

وختم رأيه في المستشرقين بقوله: «إنّهم ليسوا من العلم ولا من الأمانة كما يتصورهم الناس، وإنّهم ممن لا يوثق بهم في البحث العلمي»(٣٥).

ويقول أحمد فارس الشدياق: «إنّ هؤلاء الأساتيذ (المستشرقين) لم يأخذوا العلم عن شيوخه؛ وإنّما تطفلوا عليه تطفلاً، وتوثبوا فيه توثباً، ومن تخرج فيه بشيء فإنّما تخرج على القسس، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام، أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه، وتوهم أنّه يعرف شيئاً، وهو يجهله، وكل

منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء، فما اشتبه عليه منها رقَّعه من عنده بما شاء، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمَّن، فرجّح منه المرجوح وفضّل المفضول»(٣٦).

وأمّا الفئة الثالثة من الباحثين التي وقفت موقفاً وسطاً، فهي ـ من جانب ـ أيدت الذين حكموا على الاستشراق بالعدوانية وفيما أوردوه من سلبياته، ولكنهم ـ من جانب آخر ـ وافقوا الذين مدحوا الاستشراق وأثنوا عليه؛ لما قام به من نشر للتراث الإسلامي، ودعت إلى الأخذ بالنتائج الإيجابية، وتقويم أعمال المستشرقين وفق الأسلوب العلمي المنهجي، والابتعاد عن التعصب والانفعال، كما دعوا ـ في مقابل ذلك ـ إلى عدم امتداح هذه الأعمال وعدم اعتبارها المثل الأعلى دون تقويم علمي(٣٧).

وبعض أفراد هذه الفئة يحكمون على الفكر الاستشراقي وفقاً لتصنيف المستشرقين والتفرقة بين المنصفين منهم وغير المنصفين، وأنّ المسؤولية العملية تقتضي عدم أخذ الصالح بالطالح، والمحسن بالمسيء.

ذكر العلامة أبو الحسن علي الحسن الندوي في بحثه عن الإسلام والمستشرقين(٣٨) أنّه: إذا كان لابد من نقد وتقييم لعمل علمي أو تحقيق لباحث، والاختلاف عنه أو نقضه وتزييفه، أو تبيين الخطإ فيه، فيلكن ذلك في أسلوب علمي، ونقد نزيه، وبنسبة عادلة معقولة، ثم قال: لذلك أعترف ـ بكل وضوح وصراحة ـ أنّ عدداً من المستشرقين كرّسوا حياتهم وطاقاتهم

لدراسة العلوم الإسلامية، وتبنّوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية، أو اقتصادية، أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم، وبذلوا فيه جهوداً ضخمة. ويكون من المكابرة والتقصير أن لا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها، وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس ـ منذ قرون ـ إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثائق تاريخية، لها مكانتها وقيمتها، صدرت لأوّل مرة بفضل جهودهم وهمتهم، وقرت بها عيون العلماء في الشرق؟!

وبعد أن سرد الأستاذ الندوي بعض الأسماء التي امتدح جهدها العلمي ونشاطها الفكري، قال: ورغم هذا الاعتراف بفضلهم، لا يمنعني شيء من أن أصرح بأنّ طائفة كبيرة من المستشرقين كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية والحضارة والتاريخ الإسلامي، وابرازها لأجل غاية سياسية أو دينية.

وأومأ ـ بعد هذا ـ إلى أهم ملامح الاستراتيجية الاستشراقية الدقيقة، أو منهج الاستشراق في تشويه صورة الإسلام وحضارته، فقال: «ومن دأب كثير من المستشرقين، أنهم يعيّنون لهم غاية، ويقررون في أنفسهم تحقيقها بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات ـ من كل رطب ويابس ـ ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب

والشعر، أو الرواية والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة، ويبنون عليها نظرية، لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم.

وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسّون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من (السم) ويحترسون في ذلك، فلا يزيدون على النسبة المعينة لديهم؛ حتى لا يستوحش القارئ، ولا يثير ذلك فيه الحذر، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف، فهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً، ويجودون ـ لتمكينه في النفوس ـ بذكر عشر محاسن، ليست لها أهمية كبيرة»[٣٩].

وقرر الندوي أن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارئ من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها، أو ينتهي في قراءتها دون الخضوع لها[٤٠].

فالعلاّمة الندوي لم يعمم حكمه على جميع المستشرقين، فاعترف بفضل بعضهم، وبيّن أنّ أكثرهم لا يعرفون الموضوعية فيما يكتبون، وأنّ لهم أساليبهم التي تدمغ فكرهم بالنفاق العلمي والخداع البحثي.

وأمّا الدكتور محمد غلاب[٤١]، فهو ينظر إلى المستشرقين نظرة تاريخية، من حيث آراؤهم ودرجة الأمانة والسلامة من الهوى في دراساتهم، فيرى: «أنّ الفكر الاستشراقي قبل القرن التاسع عشر كان أكثره

صادراً عن المتعصبين من رجال الدين، وكان مبعثه ـ في جلاء ـ هو الرغبة في محاربة الإسلام، وتصيد المثالب المزعومة، أو اقتناص الحجج المغالطة لتقديمها إلى المبشرين؛ كي يستغلوها في جدلهم مع المسلمين؛ وهذا يعني أنّ ذلك الفكر لا يحتوي على كثير من الضبط أو النزاهة أو الحياد»(٤٢).

«ولكن الفكر الاستشراقي في هذا القرن وبعده لم يعد كله على هذا النحو؛ وإنّما عرف فريقاً، لا يستهان به، من أفذاذ علماء الغرب ومفكريه، يكتبون عن الإسلام والمسلمين كتابة قيمة، تشرّف عقلياتهم وتسجّل للإسلام عظمته وجلاله»(٤٣).

ويعزو الدكتور غلاب أخطاء الفكر الاستشراقي في العصر الحديث إلى التأويلات التي يحكمها الهوى أحياناً، ولأنّ المستشرقين يشتغلون ببحوث بعيدة كل البعد عن تربيتهم الخاصة وعقليتهم المتعارضة ـ بطبيعة تكوينها ـ مع موضوعات بحوثهم(٤٤)؛ ولهذا يدعو المسلمين إلى عدم إساءة الظن بجميع المستشرقين من غير استثناء، فذلك في نظر الإسلام إثم كبير(٤٥).

أنّ هناك آراء متعددة، لا تخرج في مضمونها عما جاء في بحث العلامة الندوي وكتاب الدكتور غلاب، وقد آثرت الاجتزاء بما ذكرت ـ فليس المقام مقام استيعاب وحصر؛ لبيان وجهة نظر طائفة من الباحثين، تقف من الفكر الاستشراقي موقفاً، لا يسرف في المدح والثناء، ولا يزري به كل الإزراء.

وإذا كانت الدراسة التاريخية للاستشراق قد أثبتت أنّه لم يدرس الإسلام وحضارته على هَدْي المنهج والموضوعية، وإنّما نهضت دراسته على هدي النزعات الدينية والمصالح الاستعمارية، فلماذا اختلف الباحثون في الحكم على هذا الفكر؟

إنّ الاختلاف بين الذين يذكرون للاستشراق بعض الحسنات والذين لا يرون له حسنة، ليس اختلافاً جوهرياً؛ فالجميع متفقون على أنّ الجانب السلبي في الفكر الاستشراقي أغلب من الجانب الإيجابي، وأنّ الجانب الإيجابي لم يكن هدفاً مقصوداً لهذا الفكر.

ولكن الذين يرون أنّ الاستشراق أحسن أكثر مما أساء، وأنّ المغرضين من المستشرقين فئة قليلة، يحتاج رأيهم إلى تحليل وتعليل؛ للوقوف على الأسباب التي كانت من وراء هذا الموقف.. إنّ هؤلاء الذين ساروا في ركاب الفكر الاستشراقي، وروجّوا له، وأثنوا عليه، هم في الغالب إمّا غير مسلمين، أو مسلمون لا يلمون بالثقافة الإسلامية. وهؤلاء ـ بعد اتصالنا بالحضارة الغربية في مستهل القرن الميلادي الحالي ـ لم يجدوا أمامهم طريقاً ممهداً للحديث عن تراثنا المبعثر في كتب قديمة غير منظمة تنظيماً، يتفق وتنظيم الكتب العلمية عند الغربيين، إلا كُتُبَ المستشرقين، فاندفعوا إلى الاقتباس منها، وقد بهرهم سعة اطلاع المستشرقين وعلمهم، فاعتقدوا أنّهم لا يقولون إلا الحق، وأنّهم ـ فيما خالفوا فيه الحقائق المقررة عندنا ـ أصح حكماً

وأصوب رأياً؛ لأنّهم يسيرون وفق منهج علمي دقيق، لا يحيدون عنه. ومن هنا، نشأت الثقة ببحوث هؤلاء الغربيين والاعتماد على آرائهم (٤٦).

فالاعجاب بالفكر الاستشراقي سواء أكان الاتصال به عن طريق القراءة أو التتلمذ لدىٰ المستشرقين، كان مبعثه فقدان الحصانة الفكرية الإسلامية، ثم الشعور بالنقص، وعدم الثقة بأنفسنا، واكبار هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم في دراسة ثقافتنا وتتبع مصادرها في خزائن الكتب العامة، حتى استطاعوا بالدأب المتواصل أن ينظموا الحديث عنها تنظيماً، بهر الأبصار واستولى على الألباب (٤٧). ولأنّ هؤلاء الذين فتنوا بالفكر الاستشراقي، ودافعوا عنه، وتبنوا مقرراته، قد اضطلع كثير منهم بالعمل في الجامعات ومراكز التوجيه الفكري والإعلامي في العالم الإسلامي؛ فإنّهم نشروا هذا الفكر في مؤلفاتهم ومحاضراتهم، ونشأت أجيال على أيديهم تؤمن بما يؤمنون به، ومن ثم اتسعت دائرة الآثار السلبية للفكر الاستشراقي في الفكر الإسلامي المعاصر.

وبعد كل ما تقدم، ماذا عن تقويم الفكر الاستشراقي أو الحكم عليه في ميزان النظر الموضوعي والنقد العلمي؟

لقد أسلفت أنّ منهج هذا الفكر لا يقوم على أصول علمية، بقدر ما يقوم على أوهام وتصورات فاسدة؛ فهو منهج، ينطلق من مسلّمات، يرفضها منطق البحث العلمي، وطوعاً لهذه المسلّمات لا يحتضن إلا المصادر التي

تستجيب لتلك الأوهام ويسعى ـ في دأب وصبر ـ لجمع كل غث وسمين يخدم أفكاره، دون نظر إلى مدى علاقة المصدر (الذي ينقل عنه) بالموضوع الذي يدرسه. فضلاً عما يلجأ إليه من التلبيس، والتخليط، وخيانة الأمانة العلمية.

وكان من وسائل التلبيس في المنهج الاستشراقي عدم الجمود عليه بصورة حرفية، وإنّما كان يراعي ما يجدّ في العالم الإسلامي من تطورات فكرية، فرضت على الاستشراق أن يعدل من طرائق تناوله للقضايا، دون أن يجور ذلك على أهدافه ونصرة مبادئه. فكثير من الدراسات الاستشراقية المعاصرة قد تبدو من حيث الشكل أعمالاً علمية، ولكن حين يغوص المرء تحت المظاهر السطحية من الحواشي المتعالمة والمراجع المنسقة، يجد نفسه مضطراً لأن يواجه نذير الخطر في إلقاء القول على عواهنه، والتخمين، وإصدار الأحكام التي لا يشهد لها إلا القليل من الشواهد، أو لا يشهد لها شاهد قوي على الاطلاق[٤٨].

ومادام المنهج الاستشراقي على هذا النحو من التمويه والخداع، فإنّ صورة العصور الوسطى للإسلام في الفكر الاستشراقي قد ظلت في جوهرها حتى الآن دون تغيير؛ وإنّما نَضَتْ عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع ثياباً أقرب إلى العصر[٤٩].

ويلحق بهؤلاء ـ الذين يلقون القول على عواهنه، على الرغم من الشكلية المتعالمة ـ في البحث طائفة من المستشرقين، يعلنون في دراساتهم

أنّهم موضوعيون، ويحرصون على تقديم معلومات صحيحة. وهؤلاء قد يذكرون بعض الجوانب الإيجابية المتعلقة بالإسلام وحضارته الإنسانية؛ مما قد يعطي انطباعاً لدى القارئ ـ مسلماً أو غير مسلم ـ بأنّ الباحث موضوعي. ولكن النظر الفاحص في دراسات هؤلاء يكشف عن كثير من الأغاليط والأوهام التي قد لا يتفطن إليها إلا قارئ حصيف، فيحملها من لا يحسن النظر محمل الصحة، ويشيعها بين الناس، وكأنّها حق لا مرية فيه.

إنّ هؤلاء الذين تستروا تحت رداء العلمية والموضوعية(٥٠) لا يختلفون في واقع الأمر عن غيرهم من المستشرقين الذين كتبوا عن الإسلام، إلا في أنّهم لم يظهروا تعصبهم ضد هذا الدين وعداءهم له بطريقة مكشوفة. وحاولوا أن يقدموا آراءهم في صورة، تجذب المسلم إليها، وتصل إلى عقول الأوربيين، وكأنّها حقيقة لا جدال فيها.

وأمّا الذين يمدحون الإسلام من المستشرقين ويشيدون بإسهام المسلمين في الحضارة، فإنّ هؤلاء ـ كما أسلفت ـ يريدون لفت أبصار المسلمين عن مشكلاتهم الحادة التي تعوق نهضتهم إلى العيش الخيالي في أبهة الماضي وأمجاده، وهم يقصدون بما يمجدون خلق جو من الاطمئنان إلى نزاهة الفكر الاستشراقي، ومقابلة هذه المجاملة من جانب المستشرقين بمجاملة مثلها من جانب المسلمين للقيم الغربية(٥١).

ولأنّ الاستشراق نشأ أساساً لخدمة التبشير ولمقاومة المد الإسلامي

بين غير المسلمين، وبعد الحروب الصليبية أضاف هدفاً ثالثاً، هو العمل على احتلال ديار المسلمين والتخطيط لتمزيقهم سياسياً وفكرياً، حتى لا تجتمع كلمتهم ولا تقوىٰ دولتهم؛ كانت الكنيسة والدولة معاً ترعيان الاستشراق وتغدقان عليه الأموال. وفي العصر الحاضر، دخل مجالَ الانفاق على الاستشراق شركات ومؤسسات؛ من أجل خدمة مصالحها في العالم الإسلامي (٥٢).

إنّ الاستشراق لم يكن ليعيش هذه الفترة الزمنية الطويلة والتي بلغت نحو ثلاثة عشر قرناً، وينشر آلاف الدراسات، ويصدر الكثير من الحوليات، والتي مازال بعضها يصدر حتى الآن، ويحقق ويطبع من المخطوطات العربية قدراً لا بأس به، ويتعاون في إخراج الموسوعات والفهارس المتنوعة، ويعقد مؤتمراته الدولية والإقليمية، لولا ذلك الإغداق المالي عليه،والذي أتاح له التفرغ للقيام بمهمته التي لا تخرج ـ في جملتها ـ عن اضعاف فاعلية الإسلام وتقليص مجاله الحيوي؛ ليدور في فلك التعاليم المسيحية (٥٣).

ولكن: أليس للاستشراق ـ مع هذا ـ جانب إيجابي؟

لقد قال بعض المستشرقين في الإسلام كلمة حق،بيد أنّ صوت هؤلاء قد ضاع وسط الضجيج الهائل الذي كان يريد نشر ضباب كثيف من الأباطيل، تحول دون أن يصل نور الإسلام إلى الحيارى والتائهين في دياجير

الحضارة المادية المعاصرة.

وإذا كان بعض المستشرقين قد مجدوا الإسلام، فإنّهم قاموا بمهمة المخدر الذي ينقل المرء من واقعه؛ ليحلم ويفخر بماضيه. وكفى بذلك قتلاً للطاقات التي تدفع عجلة التقدم إلى الإمام.

ويبقى جمهور المستشرقين وهم إذا كانوا قد قدموا لنا بعض الخير والنفع والمتمثل في التحقيق والنشر وإصدار الفهارس القرآنية والحديثية وغيرها، فإنّ هذا الذي قدموه لم يكن مقصوداً لهم ولا غاية من غاياتهم. فكيف لقوم، ينكرون نبوة محمد (ص)، ولا يعترفون بأنّ القرآن كتاب من عند الله، ويحكمون على الأحاديث النبوية بالوضع والاختلاق.. كيف لهم أن يجندوا جيشاً من الباحثين لوضع الفهارس للمصدر الأوّل للدين الإسلامي، وكتابة آلاف البحوث والدراسات حول هذا الدين، وعلمائه، وتراثهم الفكري، ولا سيما تلك الدائرة التي يعيدون طبعها ويضيفون إليها؟

ولا يعقل أنّهم يقدمون لنا خدمة دينية وعلمية، وهم يرون أننا أمة مُضَلّلة، تتبع نبياً دعياً، وكتاباً بشرياً، وسنة مكذوبة، وتاريخاً ملفقاً، وحضارة غير أصيلة؛ وإنّما الذي يعقل ويقبل أنّهم ـ بما بذلوا وفعلوا ـ إنّما كانوا يخدمون أنفسهم. وهذا لا ينفي أننا انتفعنا ببعض ما قدموا، بيد أنّه انتفاع بالعرض، فلم يكن للاستشراق من هدف إلا خدمة أفكاره، وما كانت خدمتنا هدفاً له ولا غاية من غاياته.

والخلاصة: أنّ الفكر الاستشراقي ـ في جملته ـ لم يكن علمياً ولا خالصاً لوجه الحق والإنصاف؛ للأسباب التالية:

أوّلاً: رعاية الكنيسة له منذ بدأ وحتى الآن، ثم رعاية السياسة الاستعمارية له في العصر الحديث.

ثانياً: نهض بالفكر الاستشراقي في أوّل نشأته الرهبان والقساوسة، وظل بعض هؤلاء يعملون في حقل هذاالفكر حتى العصر الحاضر. ومن هنا؛ لم يستطع الفكر الاستشراقي أن يتخلى ـ في عصر العلم ـ عن الأباطيل والسخافات التي كان يرددها في عصر الظلمات.

ثالثاً: مجافاة المنهج العلمي بإهمال ملاحظة المبادئ الأولية له؛ وذلك لانطلاق الفكر الاستشراقي.. من مبدأ الاعتقاد ببشرية القرآن وعدم صدق محمد في نبوته.

رابعاً: إهمال المصادر الإسلامية الأصيلة، والاحتفاء بدراسات المستشرقين تلك الدراسات التي مُلِئت بالافتراءات التي تشوه الإسلام وتنفِّر من المسلمين.

خامساً: التمويه والتلبيس في البحث بالتظاهر بالموضوعية والاستيعاب، ثم دس السم في الدسم وفق اسلوب، يوحي بأنّ الفكر الاستشراقي يتسم بالجدة، والدقة، والصحة، وهو ليس كذلك في الواقع.

هذه أهم الأسباب التي حالت دون أن يكون الفكر الاستشراقي فكراً

علمياً أو إنسانياً. وما عرفه هذا الفكر على أيدي بعض المنصفين يعد استثناء أو شذوذاً عن القاعدة العامة التي قادته في الماضي والحاضر. ومن هنا كان من أخطر آثار الفكر الاستشراقي على المستويين الإسلامي والعالمي ما يلي:

أولاً: على المستوى العالمي:

زرع الخوف من الإسلام في نفوس اليهود والمسيحيين؛ مما كان سبباً في توتر العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب. ويعبر عن هذا الخوف أجهزة الإعلام في كل يوم. فالإسلام في هذه الأجهزة يعرض بصورة مشوهة، تسيء إليه أبلغ إساءة؛ مما يعمق في النفوس التوجس منه والحنق عليه، والرغبة في مناهضته ومقاومته.

ثانياً: على المستوى الإسلامي:

إحداث التمزق الفكري والصراع المذهبي بين المفكرين والمثقفين في العالم الإسلامي؛ فهؤلاء المفكرون لا يتفقون على كلمة سواء في قضايا أمتهم المصيرية: فمنهم من أولع بالفكر الاستشراقي والثقافة الغربية، فدعا إليهما وناوأ سواهما، ومنهم من رأى في هذه الثقافة وذلك الفكر خطراً على الذاتية الإسلامية فعاداهما. ومن ثم شهد هذا العالم منذ أكثر من نصف قرن اختلافات كثيرة، استهلكت طاقات أهل الرأي فيه دون جدوى، ومازالت هذه الاختلافات حتى الآن تشغل الأمة بما لا يعود عليها بطائل في دينها ودنياها[٥٤].

وخلاصة القول: أنّ الفكر الاستشراقي لم يمارس البحث للوقوف على ما في الإسلام من حقائق، بل زاوله كلون من ألوان الفكر التاريخي، وهو ـ لظروف نشأته ـ لا يبذل جهداً لمعرفة الحقيقة؛ وإنّما لإقامة الأدلة على صحة ما درج عليه من مبادئ وأفكار خاصة.

وهو اليوم وإن تغير عن بعض مواقفه بالأمس، الّا انّ هذا التغير يبدو في التخلي أحياناً عن الأكاذيب والنعوت الحادة للإسلام ونبيه، وليس ثمة تخل عن طعن الإسلام وتلمس مواطن للهجوم عليه منها(٥٥).

وأخيراً، لا ألوم الاستشراق على ما قام به، فهو يخدم أمته وعقيدته على النحو الذي يراه، ولكني ألوم الذين فُتِنوا بالفكر الاستشراقي، فراحوا يركضون وراءه، ويمكنون له، كما ألوم كل مسلم يعي عدوانية هـذا الفكـر ولا يقف موقفاً سلبياً منه.

هوامش الفصل الثالث

١- انظر: نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ترجمة الدكتور علي خشيم، ص ١٢٠.

٢- وانظر: الاستشراق والمستشرقون، الدكتور مصطفى السباعي، ص ١٩.

٣- وانظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، الدكتور محمد البهي، ص ٤٨.

٤- وانظر: الإسلام والدعوات الهدامة، الاستاذ أنور الجندي، ص ٢٥٠.

٥- الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٦٦.

٦- الإسلام والقوى المضادة، نجيب الكيلاني، ص ٣٨.

٧- وانظر: المصدر السابق، ص ٣٣.

٨- انظر: مجلة البيان؛ وهي مجلة تصدر عن المنتدى الإسلامي في لندن، عدد صفر ١٤٠٩ هـ

٩- انظر: مجلة العربي، العدد ٣٠٧، ص ٨٢.

١٠- انظر: مجلة الفكر العربي، العدد ٣٢، ص ١٠٨.

١١- انظر: مصادر الدراسة الأدبية، يوسف أسعد داغر، ط. بيروت، ج ٢، ص ٧٧٩. فقد ذكر أنّ للاستشراق خدمات جليلة للمدنيات الشرقية عامة وللثقافة العربية خاصة، وانّ أهم هذه الخدمات للثقافة العربية هي جمع المخطوطات، وفهرستها، وخلق الوعي الثقافي واليقظة الفكرية. ووصف أعمال المستشرقين بأنّها كانت تتسم بالمنهجية وان افتقر بعضها إلى الدقة.

١٢- انظر : مجلة المجمع العلمي العربي، ج ١٠، مجلد ٧، ص ٤٣٣- ٤٥٦، وقد ألقى الأستاذ هذه المحاضرة مرتين: مرة في المجمع العربي بدمشق، ومرة في نادي دار المعلمين العليا بالقاهرة، يوم ٥ مايس / مايو سنة ١٩٢٧م.

والأستاذ محمد كرد علي، أصله من أكراد السليمانية من أعمال الموصل، مولده ووفاته بدمشق، وولد سنة ١٢٩٣هـ، وعمل في الصحافة في الشام ومصر، وولي وزارة المعارف بالشام مرتين، وهو مؤسس المجمع العلمي بدمشق، وكان رئيساً له، له مؤلفات وآثار علمية كثيرة، توفي سنة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م (الأعلام للزركلي).

١٣- انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، ج ١، ص٧، ط ٣، دار المعارف، القاهرة.

١٤- المنتقى من دراسات المستشرقين، الدكتور صلاح الدين المنجد، ط . بيروت.

١٥- انظر: مقدمة الأدب الجاهلي، الدكتور طه حسين، مجلد ٥، ص١٨، الأعمال الكاملة، ط . دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٦- انظر: نفع المستشرقين أكثر من ضررهم، مجلة الهلال، العدد الثالث، عام ١٩٣٣م، ص ٣٢١. والدكتور زكي مبارك من كبار الكتاب المعاصرين، امتاز بأسلوب خاص في كثير مما كتب، ولد بمحافظة المنوفية بمصر سنة ١٣١٨هـ، وتعلم في الأزهر، وحصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية، وكان يجيد الفرنسية، واشتغل بالتدريس في مصر وبعض البلاد العربية، له نحو ثلاثين كتاباً، توفي سنة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م (الأعلام للزركلي).

١٧- انظر : المصدر السابق.

١٨- انظر: المستشرقون والتراث، الدكتور عبد العظيم الديب، ص ١٣، ط . دار الوفاء بالمنصورة.

١٩- انظر: انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، مالك بن نبي، ص٩، ط. دار الارشاد، بيروت.

٢٠- انظر: العرب والحضارة الأوربية، الأستاذ عباس محمود العقاد، ص ٢٥، ط. القاهرة.

٢١- انظر: مطالعات، الأستاذ عباس محمود العقاد، ص ٩٣، ط. القاهرة.

٢٢- المصدر السابق.

٢٣- انظر: محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب، الدكتور فؤاد سزكين، ص ٨١، ٨٤ ط.

الرياض.

٢٤- انظر: الإسلام والدعوات الهدامة، الأستاذ أنور الجندي، ص ٢٥٢، ط. القاهرة.

٢٥- انظر: المصدر السابق، ص ٢٥١.

٢٦- انظر: المستشرقون والتراث، ص ٢٧.

٢٧- انظر: موقف العرب من المستعربين، الدكتور ميشال جحا، منشور.. في كتاب «الاستشراق» وهو من سلسلة كتب الثقافة المقارنة، ط. بغداد، دار الشؤون الثقافية، ج ١، ص ٣٩.

٢٨- انظر: المصدر السابق.

٢٩-انظر: المحرفون للكلم عن مواضعه، الدكتور حسن المعايرجي، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٤٨، ص ٦٢.

٣٠- المستشرقون مالهم وما عليهم، الدكتور عمر فروخ، منشور في كتاب الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، مصدر سابق، ص ٦٢.

٣١- انظر: انتاج المستشرقين، ص ٢٤.

٣٢- انظر: المصدر السابق، ص ٢٥.

٣٣- انظر: الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، الدكتور ميشال جحا، ط. معهد الانماء العربي، ص ٢٧٤.

٣٤- انظر: موقف العرب من المستعربين، المصدر السابق ص ٣٦.

٣٥- انظر: ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم، الدكتور حسين الهراوي، منشور في مجلة الهلال، العدد الثالث، سنة ١٩٣٣م، ص ٣٢١ ـ ٣٢٤.

٣٦- انظر: الاستشراق والمستشرقون، الدكتور مصطفى السباعي، ص ١٣.

٣٧- انظر: موقف المشارقة من المستشرقين، الدكتور صبحي ناصر حسين، منشور في كتاب الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، مصدر سابق، ص ٤٨.

٣٨- ألق هذا البحث في الندوة التي أقيمت عن الاستشراق وموقفه من الإسلام في ربيع الثاني من عام ١٤٠٢هـ الموافق شباط / فبراير ١٩٨٢م، في بلده «أعظم كره» بالهند.

٣٩- انظر: الإسلام والمستشرقون، للعلامة الندوي ص ١٩، ط. ندوة العلماء، الهند.

٤٠- انظر: المصدر السابق، ص ١٣، ١٧، ١٩، ٢٠.

٤١-الدكتور محمد غلاب: مصري أزهري، درس في فرنسا، وكان أستاذاً للفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر، ولد سنة ١٨٩٩م، وتوفي سنة ١٩٧١م، وله عدة مؤلفات في الفلسفة والدراسات الإسلامية.

٤٢- انظر: نظرات استشراقية في الإسلام، الدكتور محمد غلاب، ص ٤٨، ط. القاهرة.

٤٣- المصدر السابق، ص ١٥.

٤٤- المصدر السابق، ص ٢١.

٤٥- المصدر السابق، ص ١٣.

٤٦-انظر: الاستشراق والمستشرقون، الدكتور السباعي، ص ٦٢.

٤٧- المصدر السابق، ص ٦٣.

٤٨-انظر: المستشرقون الناطقون بالانجليزية، بقلم: أ.ل. طيباوي، ترجمة فتحي عثمان، ملحق بكتاب «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار»، ص ٥٢٥.

٤٩- انظر: المصدر السابق، ص ٥٣٣.

٥٠- انظر : الإسلام في الفكر الغربي، الدكتور محمود زقزوق، ص ٥٢، ط. دار القلم.

٥١- انظر: الإسلام والحضارة الغربية، الدكتور محمّد محمّد حسين، ص ١٠٨، ط.مؤسسة الرسالة.

٥٢- الإسلام والحضارة الغربية، ص ١٤٨.

٥٣- انظر: حقيقة المواجهة، مقال للأستاذ فهمي هويدي، جريدة الشرق القطرية، ٤ شعبان ١٤٠٨هـ

٥٤- أتيح لي أن أشارك في ندوة بتونس سنة ١٩٨٢م، عن مقاومة الغزو الفكري الصهيوني، وكان ما ألقي في هذه الندوة من أبحاث وكلمات يمثل التناقض والاضطراب الفكري بين أبناء الأمة الواحدة؛ فقد كان المشاركون في هذه الندوة شيعاً، وكل فرح بما يؤمن به، ويسعى جاهداً للدعوة إليه، ولذا ضاع فيها الهدف الأساس، وأمست صراعاً حول ما يؤمن به كل فريق، ومن ثم لم تنجح في مهمتها، ولم تصل إلى تخطيط علمي لمقاومة الغزو الفكري الصهيوني.

٥٥- انظر: صورة استشراقية، مصدر سابق، ص ٣٠.

الخاتمة

وبعد الحديث في تاريخ الاستشراق والتبشير، وجوهر العلاقة بينهما وتقويم ما صدر عن المستشرقين والمبشرين من أقوال وأفعال .. ما هي النتائج العلمية لهذه الدراسة؟ وماذا ترشد إليه من توصيات وتوجيهات؟

إنّ أهم هذه النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أوّلاً: إنّ الفكر الاستشراقي مثل ـ في كل مراحله ـ قوة مضادة للإسلام.. قوة سعت بكل ما أتيح لها من طاقات وإمكانات للنيل من هذا الدين، وتنفير غير المسلمين منه، ومحاولة صرف المسلمين عنه.

ثانياً: إنّ ما يعاني منه الفكر الإسلامي المعاصر من بلبلة ومتناقضات ترجع بعض أسبابه ـ إن لم تكن كلها ـ إلى ما قدمه الفكر الاستشراقي من مفاهيم خاطئة وأفكار مزورة عن الإسلام وتاريخه؛ لأنّ هذه الأفكار والمفاهيم راجت سوقها بين المثقفين وأشباه المتعلمين في المجتمع الإسلامي بعد أن خضع للاحتلال الغربي، وأصبحت للفكر الاستشراقي الهيمنة والتوجيه للسياسة التربوية والاجتماعية في هذا المجتمع، فتمزق ثقافياً في ظل

الثنائية التعليمية وما تمخض عنها من ظهور التيارات المتصارعة التي يدّعي أتباع كل منها أنّهم على الحق دون سواهم.

ثالثاً: ترتب على تلك البلبلة التي أصابت الفكر الإسلامي المعاصر من جراء الغزو الفكري الذي صاحب الغزو العسكري، وكان له عوناً في تدعيم سلطانه، أن اختلفت صفوة المفكرين والباحثين في الأمة الإسلامية حول قضية، لم يختلف المسلمون فيها من قبل، وهي أنّ الإسلام دين ودولة؛ عقيدة وشريعة، وأنّه الحل الأمثل لكل المشكلات.. مشكلات التخلف، والضعف، والتفرق، والعصبية المذهبية والعرقية.

رابعاً: يلاحظ المتتبع لمسارات السياسة الدولية المعاصرة أنّها تتخذ من قضايا المسلمين وحقوقهم مواقف مجافية للحق والعدل والإنصاف، وأنّ المنظمات العالمية التي قامت من أجل حماية الحقوق الإنسانية للشعوب لا تتدخل في أزمة أو مشكلة إسلامية إلا إذا كان هذا التدخل لترجيح كفة معادية أو من أجل تحقيق مصلحة لدولة غير إسلامية.

خامساً: والدراسة العلمية لتلك المواقف تؤكد أنّ الفكر الاستشراقي هو المسؤول عنها؛ لأنّه هو الذي قدم الإسلام والمسلمين للعالم الغربي، فاستقر في وجدان هذا العالم النفور من الإسلام والاستهانة بالمسلمين، منذ مئات السنين، وزاد ضعف العالم الإسلامي من تصديق كل ما قاله الاستشراق، وهذا يفسر الخوف الغربي من الصحوة الإسلامية؛ لأنّها تعني

عودة القوة والحيوية للمسلمين، وفي هذا تهديد لمصالح الغرب وأطماعه العدوانية.

إنّه الصراع الأبدي بين الحق والباطل؛ والخير والشر، ومهما حقق الشر والباطل من مكاسب، فإنّ المآل إلى خسران مبين ﴿فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾.

تلك أهم النتائج، إنّها في إيجاز تعني أنّ الفكر الاستشراقي كان من وراء كل المواقف المعادية للإسلام والمسلمين، فهو الذي زرع الخوف من هذا الدين والمؤمنين به في نفوس الغربيين، فتمالئوا جميعاً على قهره في عقر داره، واقتسموا أقطاره وشعوبه وحاولوا احتلاله عقلياً وثقافياً بعد أن احتلوه عسكرياً، حتى يزحزحوه عن أصالته وأسباب قوته، فيظل تابعاً لهم، وإن كان من الناحية الشكلية متمتعاً بالاستقلال والحرية..

ولكن.. ما الذي ترشد إليه الدراسة أو توصي به من توجيهات وتوصيات؟

إنّ من سنة الله في خلقه أنّ الحق يظهر على الباطل إذا وجد من يؤمن به وينافح عنه بالأموال والأنفس،والمسلمون ـ بلا مراء ـ أهل حق. ولكن.. أيعبّر إيمانهم بحقّهم في صدق عن اليقين الخالص، أم أنّ هذا الايمان في حاجة إلى من يجدده ويذهب عنه ما اعتراه من وهن، وأصابه من فتور؟

إنّ نظرة فاحصة في أحوال المسلمين اليوم لا يمكنها أن تتجاهل أنّ

هذه الأحوال المتردية ـ وإن كانت أصابع الغير تتحمل أوزار بعضها ـ يتحمل المسلمون كافة مسؤوليتها، فهم ـ بحمد الله ـ يتمتعون بجملة من الخصائص التي لا يتمتع بها سواهم؛ إنّهم يحتلون موقعاً جغرافياً متميزاً من حيث المناخ، وخصوبة التربة، وتنوع البيئة، وهو موقع يحتل وسط العالم، ويربط بين شرقه وغربه، فله بذلك أهمية دولية خاصة.

وفضلاً عن هذا، يمثل المسلمون من حيث الكثافة السكانية نحو خمس العالم وتحت أيديهم ثروة مادية طائلة، فهم يمتلكون الأراضي الشاسعة المزروعة والصالحة للزراعة، وفي بلادهم يجري أهم الأنهار في العالم، وتحت ترابها أنهار أخرى من النفط والغاز، وفي جبالها وصحاريها كل المعادن التي لا غنى للناس عنها.

وأهم ما لدى المسلمين ـ وفوق كل ما أومأت إليه آنفاً ـ العقيدة التي تحمي البشرية من ضلالات الوثنية، والتشريع الذي يكفل العدل للجميع ويسوي بين الناس في الحقوق والواجبات.

ولكن.. مابال هؤلاء المسلمين ـ على ما يتمتعون به ـ قد فقدوا المنزلة التي بوأهم الله إياها، وتعرضوا للعدوان عليهم من مختلف الأمم؟

والذي لا مراء فيه، أنّ التفرق وما نجم عنه من ضعف وذهاب ريح كان نتيجة لضعف العقيدة، وتسرب الأوهام والأفكار الفاسدة إلى الأفئدة والمشاعر، الذي هو السبب الأوّل فيما آل إليه حال المسلمين في العصر

الحديث. ومن ثم يصبح السعي الجاد في سبيل أن يكون للعقيدة الإسلامية سلطانها الفاعل وتأثيرها الكامل هو البداية الصحيحة للتخلص من الأفكار الفاسدة التي مزقت الأمة، وجعلت منها طوائف متخاصمة أو متحاربة، والتي أدت بها في النهاية إلى ما تتعرض إليه من مهانة وظلم.

إنّ العدوان الفكري الذي يتجلى في الغزو الثقافي ـ وهو غزو بدأ في ركاب الغزو المسلح والذي كان الاستشراق في طليعة جنوده ـ يقتضي منا التعاون العلمي المنظم الذي يحق الحق ويبطل الباطل، والذي يقدم الإسلام إلى التائهين في ظلمات المادية والعلمانية، علهم يعرفون طريقهم الصحيح للخلاص من هذا التخبط الذي يعيشون فيه، ولن يكون ذلك التعاون محققاً للغاية منه إلا إذا كان بمنأى عن أهواء السياسة، وكان عملاً خالصاً لوجه الحق، ووضعت له ـ مع هذا ـ البرامج الدقيقة التي تجعل عطاءه مستمراً لا يتوقف، ومتدفقاً لا ينضب، مهما تغيرت الأسماء أو اختلفت الأشخاص.

إنّ الجهاد الفكري في عصرنا ضرورة؛ لندفع عن أنفسنا ذلك العدوان الباغي الذي ما فتئ يعبّئ طاقاته، وينوّع من أساليبه خدمة لأهدافه التي لا تخرج عن إضعاف المسلمين، وسلب صفة الخيرية عنهم، وهي مسؤولية أهل الذكر من المفكرين والباحثين؛ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أوّلاً: الكتب:

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ أبو زهرة، الشيخ محمد، الفقه الإسلامي والقانون الروماني.

٣ـ أبو زهرة، الشيخ محمد، القرآن.. المعجزة الكبرى.

٤ـ أبو طالب، الدكتور صوفي، بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني.

٥ـ ابن نبي، مالك، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، بيروت، دار الارشاد.

٦ـ البهي، الدكتور محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.

٧ـ جحا، الدكتور ميشال، الدراسات العربية الإسلامية في أوربا، بيروت، معهد الانماء العربي.

٨ـ جحا، الدكتور ميشال، موقف العرب من المستعربين، بغداد، دار الشؤون الثقافية، سلسلة كتب الثقافة المقارنة (كتاب الاستشراق).

٩ـ الجندي، الاستاذ أنور، الإسلام والدعوات الهدّامة.

١٠ـ جولد زيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى.

١١ـ الحاج، الدكتور سامي سالم، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مالطا، مركز دراسات العالم الإسلامي.

١٢ـ حسين، الدكتور صبحي ناصر، موقف المستشرقين من

المشارقة، بغداد، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، (كتاب الاستشراق).

١٣ـ حسين، الدكتور طه، مقدمة الأدب الجاهلي (الأعمال الكاملة)، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

١٤ـ حسين، الدكتور طه، في الأدب الجاهلي، ط. القاهرة.

١٥ـ حسين، الدكتور محمد محمد، الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة.

١٦ـ حسين، الدكتور محمد محمد، حصوننا مهددة من الداخل.

١٧ـ الحوفي، الدكتور أحمد، سماحة الإسلام.

١٨ـ خشيم، الدكتور علي وآخر (ترجمة)، نظرة الغرب إلى الإسلام في العصور الوسطى، ط. ليبيا.

١٩ـ الخطيب،الدكتور محمد عجاج، السنّة قبل التدوين، ط. القاهرة.

٢٠ـ داغر، يوسف أسعد، الدراسة الأدبية.

٢١ـ دراز، الدكتور محمد عبد الله، الكويت، دار القلم.

٢٢ـ الدسوقي، الدكتور محمد، أيام مع طه حسين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢٣ـ الديب، الدكتور عبد العظيم، المستشرقون والتراث، المنصورة، دار الوفاء.

٢٤ـ زقزوق، الدكتور محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، سلسلة كتاب الأمة القطرية.

٢٥ـ زقزوق، الدكتور محمود، الإسلام في الفكر الغربي، ط. دار القلم.

٢٦ـ السباعي، الدكتور مصطفى، الاستشراق والمستشرقون.

٢٧ـ السباعي، الدكتور مصطفى، السنّة ومكانتها من التشريع

الإسلامي، القاهرة، مكتبة دار العروبة.

٢٨ـ سزكين، الدكتور فؤاد، تاريخ العلوم عند العرب، ط. الرياض.

٢٩ـ سزكين، الدكتور فؤاد، محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب.

٣٠ـ سعيد، الدكتور ادوارد، الاستشراق، ترجمة الدكتور كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية.

٣١ـ السنهوري، أُصول القانون.

٣٢ـ سمايلوفتش، الدكتور أحمد، فلسفة الاستشراق، القاهرة، دار المعارف.

٣٣ـ الشاطبي، الموافقات، القاهرة، ط. السلفية.

٣٤ـ شلبي، الدكتور عبد الجليل، صور استشراقية.

٣٥ـ الصالح، الدكتور صبحي، علوم الحديث ومصطلحه، بيروت، دار العلم للملايين.

٣٦ـ الطهطاوي، المستشار محمد عزت، التبشير والاستشراق، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية.

٣٧ـ طيباوي، أ. ل، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، ترجمة فتحي عثمان(ملحق بكتاب «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار»).

٣٨ـ عبد الرزاق، الشيخ مصطفى، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط. القاهرة.

٣٩ـ العقاد، الأستاذ عباس محمود، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، بيروت، دار الكتاب العربي.

٤٠ـ العقاد، الأستاذ عباس محمود، مطالعات، ط. القاهرة.

٤١ـ العقيق، نجيب، المستشرقون، القاهرة، دار المعارف.

٤٢ـ الغزالي، الشيخ محمد، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.

٤٣ـ غلاب، الدكتور محمد، نظرات استشراقية، ط. القاهرة.

٤٤ـ فروخ، الدكتور عمر، المستشرقون مالهم وما عليهم. بغداد، سلسلة كتب الثقافة المقارنة (منشور في كتاب الاستشراق).

٤٥ـ الكيلاني، نجيب، الإسلام والقوى المضادة.

٤٦ـ المنجد، الدكتور صلاح الدين، المنتقى من دراسات المستشرقين، ط. بيروت.

٤٧ـ موسى، الدكتور محمد يوسف، التشريع الإسلامي وأثره في التشريع الغربي، ط. القاهرة.

٤٨ـ موسى، الدكتور محمد يوسف (ترجمة)، العقيدة والشريعة. ط. القاهرة.

٤٩ـ الندوي، الإسلام والمستشرقون.

٥٠ـ هاشم، زكريا، المستشرقون والإسلام.

ثانياً: الدراسات والمقالات:

١ـ شهاب، الاستاذ محمد أسد، الاستشراق ،مجلة الأُمة (القطرية)، العدد ٢٠.

٢ـ الصباح، الدكتورة رشا، الاستشراق.. ماله وما عليه؟ صحيفة الأنباء (الكويتيّة)، ١٤ / ٩ / ١٩٨٢م.

٣ـ الغمراوي، الاستاذ محمد أحمد، المستشرقون ورسالة الرسول، مجلّة الثقافة، العدد ١٨.

٤ـ المعايرجي، الدكتور حسن، المحرفون الكلم عن مواضعه، مجلّة

المسلم المعاصر، العدد ٤٨.

٥ـ الهراوي، الدكتور حسين، ضرر المستشرقين أكثر من نفعهم، مجلّة الهلال، العدد ٣.

٦ـ هويدي، الاستاذ فهمي، حقيقة المواجهة، جريدة الشرق (القطريّة)، ٤ شعبان ١٤٠٨ هـ.

ثالثاً: الدوريات:

١ـ مجلة الأزهر / مصر.

٢ـ مجلة الأمة / قطر.

٣ـ صحيفة الأنباء / الكويت.

٤ـ مجلة البحث العلمي / المغرب.

٥ـ مجلة البيان.

٦ـ مجلة الثقافة.

٧ـ صحيفة الشرق / قطر.

٨ـ مجلة العالم الإسلامي.

٩ـ مجلة العربي / الكويت.

١٠ـ مجلة الفكر العربي / لبنان.

١١ـ مجلة المجمع العلمي العربي / سورية.

١٢ـ مجلة المسلم المعاصر / الكويت.

١٣ـ مجلة منار الإسلام / الامارات العربية المتحدة.

١٤ـ مجلة الهلال / مصر.

١٥ـ مجلة الوعي الإسلامي / الكويت.

الفهرس

الفصل الأول

تاريخ الاستشراق

الفصل الثاني

من آراء المستشرقين

الفصل الثالث

تقويم الفكر الاستشراقي

المؤلف

■ من ابرز وجوه العمل الثقافي والفكري في الساحة الاسلامية.

■ استاذ ورئيس قسم الفقه والاصول في كلية الشريعة ـ جامعة قطر.

■ من مواليد مصر عام ١٩٣٤ م.

■ نال شهادة الدكتوراه في الفقه والاصول من جامعة القاهرة عام ١٩٧٢ م.

■ شغل مناصب علمية عدة، منها: نائب رئيس التحرير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، واستاذ الفقه والاصول بالجامعات الليبية والمصرية.

■ ألف العديد من الكتب، منها:

ـ الاجتهاد في الفقه الاسلامي.

ـ المال في الاسلام.

ـ الاجتهاد والتقليد في الشريعة الاسلامية.

ـ منهج البحث في العلوم الاسلامية.

ـ الاسرة في التشريع الاسلامي.

ـ الحل الاسلامي بين النظرية والتطبيق.

■ كتب العديد من البحوث والدراسات في الدوريات العربية والاسلامية.

■ شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات الاسلامية.

سلسلة كتاب التوحيد وشروط النشر

كتاب التوحيد، سلسلة كتب دروية، تصدر عن مؤسسة التوحيد للنشر الثقافي، صدر العدد الاول منها في كانون الثاني ١٩٩٤م.

ويعد الكتاب مكملاً لمجلة التوحيد الصادرة عن المؤسسة نفسها، من حيث الهدف الذي يتوخىٰ تحقيقه، وطبيعة المواد التي تنشر فيه، والتي يشترط توافرها علىٰ الصفات المطلوبة، من حيث موضوعية البحث ومنهجه العلمي واصالته، وكونه يشكل اضافة جديدة في الحقل الذي ينتمي اليه الموضوع، بالاضافة الىٰ معالجته الموضوعات المهمة والملحة في الفكر والواقع الاسلاميين سواء ذات الطابع الاشكالي، او التي تحتاج الىٰ اغناء واثراء يتلائم وطبيعة حياتنا المعاصرة وقضاياها المستجدة. فالهدف من هذه السلسلة هو اغناء الفكر الاسلامي، بكل مامن شأنه تزويد الامة وصحوتها الاسلامية بالرؤىٰ والمعالجات الصحيحة والاصيلة علىٰ جميع الصعد، الفكرية، والثقافية، والتأريخية، والاجتماعية، والسياسية.

شروط النشر:

١ـ ان يكون البحث حائزاً علىٰ شروط القبول في المجال والتخصص الذي كتب فيه، وان يكون ذا رؤية معاصرة وهدف اسلامي واضح.

٢ـ ان يكون البحث متماسكاً ضمن رؤية منهجية واضحة، واسلوب علمي رصين، وترتيب متجانس في خطة البحث بما يتلاءم وتأليف الكتاب وموضوعاته.

٣ـ ان يكون البحث موثقاً توثيقاً جيداً، معتمداً المصادر والمراجع، وان يتم

تثبيتها بحسب الطرق الاكاديمية المعروفة من ذكر اسم المؤلف والمرجع، ودار النشر ومكانه، والطبعة ورقم الصفحة، مع تثبيت قائمة بالمراجع والمصادر منفصلة عن الهوامش.

٤ـ ان لايكون البحث منشوراً او معروضاً للنشر في مكان آخر.

٥ـ ان يكون البحث مكتوباً بخط واضح، وألا يزيد عن ٣٠٠ صفحة ولا يقل عن ٢٥٠ صفحة (حجم فلوسكاب)، وعلىٰ وجه واحد من الورقة. ويفضّل ان يكون مكتوباً علىٰ الآلة الكاتبة.

٦ـ ان ترفق مع البحث نبذة كافية ومختصرة عن الكتاب وموضوعاته وفكرته العامة ومدىٰ اهميته والجديد الذي فيه.

٧ـ يرفق بالكتاب عرض للسيرة الذاتية للمؤلف، يتضمن بيان مؤهلاته العلمية واهم نتاجاته مع صورة فوتوغرافية حديثة له.

٨ـ من حق المؤسسة اجراء التعديلات علىٰ البحث واختصار بعض فقراته او إعادة ترتيبها، وكذلك تغيير عنوانه إذا لزم الامر، او الطلب من المؤلف اجراء ذلك.

٩ـ يمنح المؤلف المكافأة المقررة حسب العقد المبرم بين الطرفين (المؤسسة والمؤلف)، بعد اقرار صلاحية كتابه للنشر.

١٠ـ يتم اعلام المؤلف بنتيجة كتابه بعد اقرار صلاحيته للنشر مباشرة. وفي حالة عدم اعتماده لايعاد الكتاب الىٰ صاحبه.

علماً بأن «اللجنة الاستشارية لكتاب التوحيد» هي المرجع النهائي في تحديد صلاحية الكتاب للنشر، من خلال اعتماد اسلوب التحكيم العلمي.